

مختارات من الأدب العالمى

ترجمة

عبدالقادر حميدة

الكتاب : الغيب (مختارات من الأدب العالمى)

المترجم : عبد القادر حميدة

الطبعة : ٢٠١٨

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

حميدة ، عبد القادر
الغيب / عبد القادر حميدة
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية
١٢٧ ص ، ١٨ سم
تدمك: ٥– ٦٧٦ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧
أ. العنوان ٩٥,٩٢٥ رقم الإيداع : ٤١٦٣

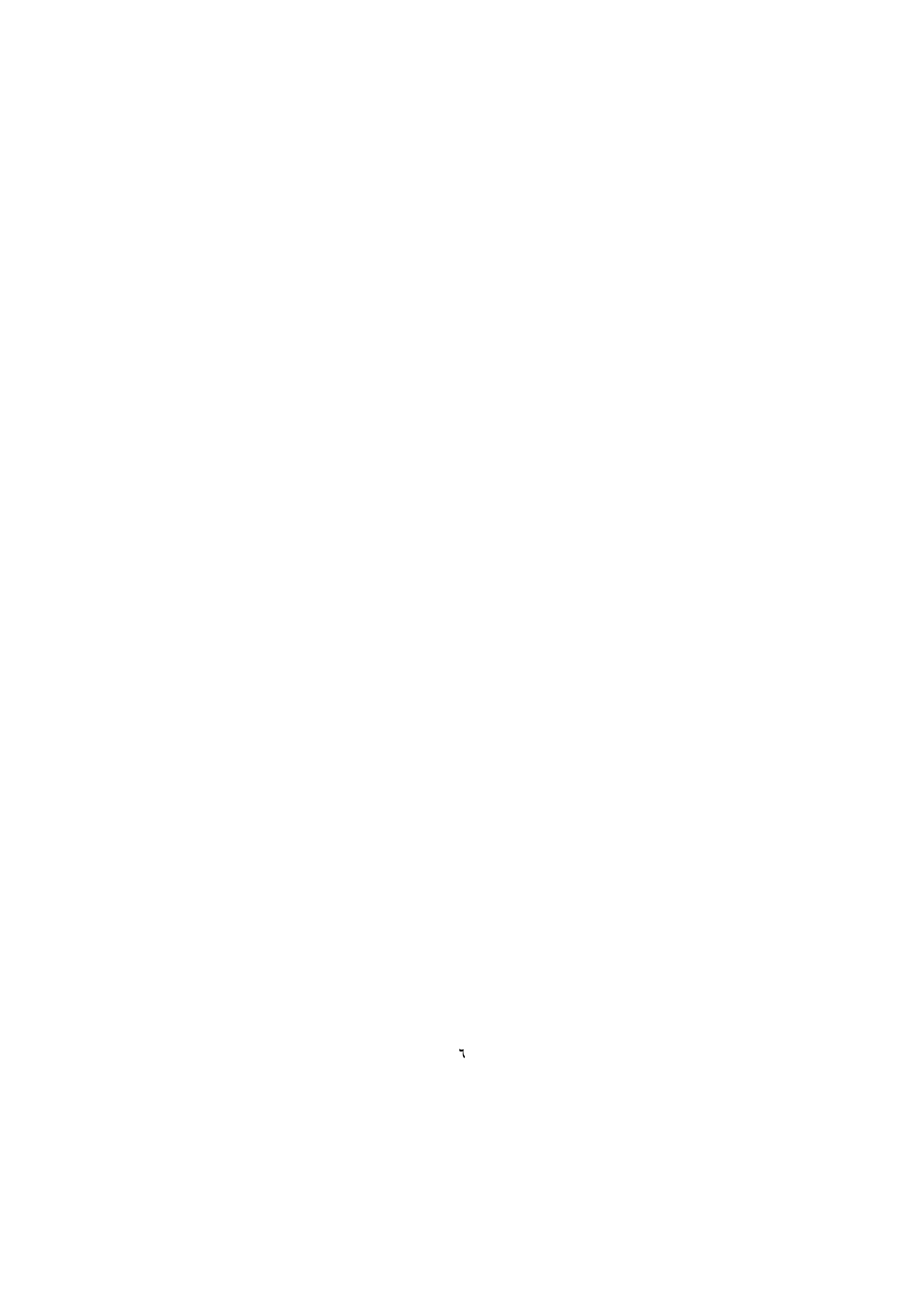
الغَيْب





إهداء ..

إلى صديقي أحمد عبد العال بدوي



كلمة المترجم

من بين قراءاتي المبكرة في القصة القصيرة باللغة الإنجليزية، بعضها مكتوب بها، وبعضها الآخر مترجم إليها من لغات أخرى. تظل قصص هذه المجموعة لصيقة بذاكرتي .. أثيرة لدي.

هذا لا يعني أنها أفضل ما قرأت.

فما أكثر الأعمال الإبداعية التي توهجت بها – دهشةً واستغراقًا وتوحدًا حميمًا بمبدعيها – في أماسي القراءات الظمآى إلى خوض العوالم الإنسانية المدهشة لأولئك المبدعين الراسخين في فنون القص.

ولا يعني أيضًا .. أن قصص هذه المجموعة تمثل نماذج إبداعات مختارة ومنتقاه لكتاب مشاهير لدي جماهير القراء بريادتهم، وفي مجال هذا الفن الممتع: القصة القصيرة.

فباستثناء الكاتب الروسي، ذائع الشهرة والصيت "أنطون تشيكوف" والكاتب الأمريكي الأدنى ذيوعًا وانتشارًا "وليم سارويان" .. أكاد أجزم أن القارئ العربي لا يعرف الكثير عن بقية كتاب هذه

المجموعة، وأعني بهم: الأمريكي "ف باركوس"، والألماني "ليونارد فرانك"، والإنجليزيين "ستيوران إمري" و"مايكل وست"، وأخيرًا ..

الكاتب الصيني "بيون"، بل ولعل من بين حوافزي إلى ترجمة أعمال هؤلاء الكتاب كونهم غير معروفين لنا، نحن القراء العرب، فضلًا عن كونهم في ذلك الوقت مبدعين إنسانيين.

ولقد يحضرني هنا – وقد مضى على قراءاتي وترجمتي لهذه القصص أكثر من أربعين عامًا – أن أسماء هؤلاء الكتاب لم تغادر ذاكرتي، بمثل ما لم يغادرني فضول البحث عن أعمالهم – بعضها أو كلها – شوقًا إلى أن أتعرف عليهم أكثر ومؤملًا، أن أعرف بهم قارئًا عربيًا، أحسبه في كل الأوقات خليقًا بالتعطش إلى الثقافة الإنسانية من ينابيعها المتعددة.

غير أن مكتباتنا العامة والخاصة – إضافة إلى مؤسسات الثقافة والنشر – وصناعة الكتاب – ليست مما تقيم وزنًا لإنهاض الجسور بين صادرات العقول المفكرة والمبدعة في العالم وبين أشواق المثقف العربي تجاه المعارف الإنسانية في آفاقها الرحيبة، وهو ما يعزو – لي – عزلتنا الثقافية الراهنة في تقوقعها وانزوائها بعيدًا عن ثقافة العصر في سباقها المحموم، نحو قرن جديد!!.

ولعلي أذكر هنا أيضًا أنني حين قرات قصة الكاتب الصيني "بي ون" في صحفية، تصدر باللغة الإنجليزية، توقفت طويلًا أمام اسمه متسائلًا: هل هو اسم لرجل.. أم لامرأة؟

وكان ذلك راجعًا – بالطبع – إلى أن أسماء الكتاب الصينيين لم تكن متداولة وقتذاك في محيط ما تقرأ فضلًا عن "جعلنا" باللغة الصينية، وبالتالي: ما الذي تكون عليه علامات التذكير والتأنيث.

فلما عني لي أن أترجمها .. وجدتني مضطرًا إلى حسم هذا "اللبس" لدي.

وهكذا رحت أنقب في عدد من المعاجم الأدبية، حتى ساقني التنقيب والبحث إلى اسم كاتب صيني من مواليد القرن السابع الميلادي يدعى "لي بي"، ومن لقب هذا الكاتب وضح لي إن "بي ون" اسم لرجل وليس لامرأة.

ثم تصادف – فيما بعد – أني تعرفت بالملحق الثقافي الصيني في القاهرة، ودار بيننا حديث طويل، وباللغة العربية الفصحى، التي يجيدها إجادة تامة – عن قصور الترجمة من العربية إلى الصينية وبالعكس. وكيف أن هذا بالضرورة – يحرم المثقفين في مصر، وفي الصين من الإطلاع على آداب البلدين، بينما بعض اللغات الأخرى،

كالإنجليزية والفرنسية والروسية، تحظى بفرص الترجمة منها .. وإليها أيضًا!!

فلما وافقته على ما يقول .. رأيت أن أدلل على ذلك، بما وقع لي من " اللبس" إياه. وكان طبيعيًا أن احكي له، كيف أن كاتبًا صينيًا من مواليد عام ٧٠١ ميلادية، هو الذي حسم لي هذا "اللبس".

عندئذ .. شرد الرجل ببصره بعيدًا .. في المدى.

تلفت بذاكرته إلى الوراء، بثلاثة عشر قرنًا من الزمان.

ثم عاد يقول: لقد عاش ذلك الكاتب – وهو بالمناسبة .. شاعر في عصر عائلة "تانج" التي حكمت الصين منذ عام ٦١٨ إلى عام ٩٠٧م.

وبالذات في فترة حكم الإمبراطور "هيوان تسونج"، الذي ولد في عام ٧١٢، وحكم الصين حتى عام ٧٥٦م، ولقد كان الإمبراطور نفسه شاعرًا، وموسيقيًا، ومسرحيًا، ولهذا كان حفيًا بالأدباء، والشعراء، والفنانين، يستقبلهم في بلاطه، ويغدق عليهم الهبات، وقد اشتهر في عهد عدد كبير من الشعراء منهم "لي بي"، الذي أوضح لك "اللبس".

وكان أكبر سنًا من الإمبراطور بأحد عشر عامًا.

ولقد عرف "لي بي" بطبعه غريب الأطوار، إذ كان دائم الشك في معنى وقيمة الحياة، وكان يعتقد أنها مهزلة، يتلهى فيها الأرباب بشيءون الناس، ومصائرهم، وقد ساقه هذا الاعتقاد إلى التحرر من كل قيد، يكبل حريته الشخصية، متخذًا من إدمانه الخمر وسيلة إلى ذلك، حتى قيل: إنه قد مات غرقا، وهو في حالة سكر شديدة، إذ قذف بنفسه إلى أعماق الماء، حين هيأ له السكر، أن يقبل صورة القمر المنعكسة على صفحته!!

وسكت الرجل هيئة ثم قال:

وأما عن الكاتب "بي ون"، فهو قاص معاصر، إنه واحد من قوافل الكتاب الذين انضموا تحت لواء تعاليم "ماوتسي تونج"[1] في الأدب والفن، وهذه التعاليم تقتضي أن يتوجه الكتاب والفنانون إلى الجماهير الجديدة من العمال والفلاحين والجنود وأفراد قيادتهم، وذلك لكي يعبروا في كل ما يكتبون ويبدعون عن الطبقة المنتجة في المجتمع.

هؤلاء المبدعون – إذن – باستثناء تشيكوف[2]، وساروريان[3]المعروفين للقارئ العربي – التقيت بهما مصادفة في طريق قراءاتي المبكرة، بمثل ما يلتقي مسافر ليل في قطار براكب، جاء مقعده بجواره، أو أمامه، ودار بينهما حديث من طرف واحد، ثم نزل كلاهما في محطته الأخيرة .. ثم لم يلتقيا، بعد ذلك!

وكان حريًا بوجوه أصحاب هذه الحكايات، أن تنزوى في ركن من الذاكرة، أو أن تسقط منها بعض الوقت، أو كل الوقت، وذلك بعد أن أفشيت إلى القراء – في ترجمة عربية أمينة ومحبة – قصة كل منهم فرادي على صفحات الدوريات الثقافية المتخصصة [٤] قبل أكثر من أربعين عامًا، لولا أن حكاياتهم تلك ظلت لصيقة بذاكرتي، أثيرة إلى ذكرياتي المبكرة في رحلتي مع القلم.

كل قصة من قصص هؤلاء، زرعت شخوصها في رأسي.

تطالعني وجوههم حينًا من بين السطور، وأنا أتصفح بالذاكرة، أوراق شاب دون العشرين، يبحث عن ذاته المسكونة بالأصوات الغامضة في مواهب الآخرين وإبداعهم.. وحينًا، تلوح لي تلك الوجوه من بين الزحام في مواكب الجماهير المتدافقة، وهي تلهث نحو غاياتها الإنسانية في غابة الحياة!!

أبدا لم يغادرني وجه الغانية "روث" في قصة "الطفل" للكاتب الأمريكي "ف براكوس"، وهي تلجأ إلى حيلة بالغة الدهاء، تحاول بها، أن تسترد الألفي دولار، اللتين سرقها عشيقها "مارتان" من زوجها المحب الطيب ـ بإيعاز منها – حين كانت تخونه معه! وذلك، تخلصًا من عذاب الضمير، الذي بات يؤرقها، وهي ترى زوجها في مرضه الأخير، مشغولًا عن شموم مرضه، بهموم تأمين اليحاة لها، ولطفلهما الوحيدة قبل أن يغادر الدنيا!!

ولم يغادرني وجه الساقي العجوز "روبرت"، في قصة "الطفل والسلام" للكاتب الألماني "ليونارد فرانك"،"روبرت" الذي فقد ابنه الوحيد في الحرب.. تتوهج أحزانه بأحزان الثكالى، والأرامل، واليتامى، ومشوهي الحرب، وهو بشيخوخته يقود مظاهرة هادرة كالموج الغضوب.. منددًا بالحروب.. داعيًا إلى إقرار السلام.

حتى وهو يسقط مضرجًا في دمائه، أثر طلقة رصاص غادرة إلى صدره.. يظل وجهه شامخًا فوق أكتاف الجماهير.. وعلى لسانه أمنية أب مكلوم: نريد السلام نريد السلام.

بل.. لم يغادرني وجه الطبيبة الإنسانية "سارة كولز" في قصة "الفقر والحب" للكاتب الإنجليزي "ستيورات إمرى"، وهي تتوسل في رجاء بالغ العطف والعذوبة إلى العاملة الفقيرة المريضة "إديث روهان"، كي لا تتزوج من الشاب الذي لم تحبه، مهما تكن في أمس الحاجة إلى الزواج منه لكي يعولها، وينقذها من براثن الفقر والمرض. وها هي هذه الطبيبة تتكفل برعايتها صحيًا، وماديًا، وروحيًا، حتى يتاح لـ "إديث"، أن تقع في الحب، وتكتشف بنفسها كم هو رائع ونبيل، أن يرتبط اثنان بالزواج على أساس من الحب!

وجوه كثيرة.. كثيرة. لا أريد أن استسلم لتداعياتها في الذاكرة، كي لا أفسد على القارئ بكارة الدهشة، وفضول الاكتشاف الممتع،

لعوالم هؤلاء الكتاب الإنسانيين، هم يسيرون غور الأحلام الإنسانية في أشواقها النبيلة .. للحياة.

نعم.. إنها وجوه تحمل أسماء أصحابها في شهادات الميلاد، بلغات مختلفة، وتتحدث ألسنتها لهجات متباينة، وتحيا أجسادها، وأوراحها، في أصقاع شاسعة، بعيدة، ومتفرقة!

لكنهم جميعًا، يحملون إلى الحياة شوقًا واحدًا، ينبض في صدر الإنسانية كلها، إنه شوق الإنسان في كل مكان إلى حياة إنسانية، تليق بآدميته، وكرامته. حياة لا يقبح جمالها الفقر، ولا يقهر عدلها الظلم، ولا يستبد بأبنائها المغامرون، والأفاقون، والمتاجرون بالأرواح، والأرزاق، والأمان، وطمأنينة الاستقرار، ونشوة الحب.

حياة.. لا مكان فيها للمرضى – نفسيًا بإزهاق الأحلام الوردية البسيطة للحياة في صدور الشعوب.

فبالهم من كتاب إنسانيين، أولئك الذين يغمسون أقلامهم في هموم الإنسان المترعة بالأحزان..

ويا لنا من محظوظين أن نلقاهم، وأن نتعرف عليهم، وأن نقرأ أحزاننا، وأحلامنا، وأشواقنا، فيما يكتبون.. ويبدعون.

عبد القادر حميدة

هوامش :

(١) ماوتسي تونج "١٨٩٣ – ١٩٧٦": سياسي صيني، اعتنق الماركسية، ودعا إليها في بلاده، وفي بلاد أخرى، أعلن تأسيس الجمهورية الشعبية الصينية في العام ١٩٤٩. وانتخب رئيسًا لها عام ١٩٥٤، وظل مسيطر على مقدارت الصين، حتى وفاته عام ١٩٧٦.

"المترجم"

(٢) "أنطون بافلوفتس تسيكوف": "١٨٦٠ – ١٩٠٤"، مؤلف قصص قصيرة وكاتب مسرحي، لفت أنظار العالم من خلال أعماله القصصية والمسرحية إلى عطفه الإنساني على شخصياته، وهو يصور حياتهم في أدق مواقفها الواقعية، فضلًا عن شاعريته المرهفة لغة، وأسلوبًا، وبساطة في التعبير، وعمق الرؤى الإنسانية، ترجمت أعماله إلى كل لغات العالم، وامتد أثره العميق في الأدب العالمي المعاصر، وبخاصة في مجال القصة القصيرة.. من أبرز مؤلفاته المسرحية: "الخال فانيا" "الأخوات الثلاث" "وبستان الكرز".

"المترجم"

(٣) "وليم سارويان": "١٩٠٨ـ...."، مؤلف أمريكي من أصل أرمني، جمع بين كتابة القصة القصيرة، والرواية، والمسرحية، وقد عرف بمضمونه الإنساني في كل كتاباته من خلال رؤية شاملة، تجعل من الإنسان – في جميع أعماله– هو الإنسان في كل زمان ومكان من أشهر رواياته "الكوميديا الإنسانية".

"المترجم"

(٤) **بعض قصص هذه المجموعة، نشرت في الفترة بين عامي "١٩٥١ و١٩٥٢" على صفحات مجلة "الرسالة والرواية" الأسبوعية، التي كان يصدرها الكاتب المعروف والأستاذ أحمد حسن الزيات، إذ كان "المترجم"، وقتذاك، واحدًا من شباب الكتاب المترددين على الكتابة بها، ضمن مجموعة من أبناء جيله.. منهم: الناقد الكبير رجاء النقاش، والشعراء اللامعون صالح الشرنوبي، وفوزي العنتيل، ومحمد الفيتوري، وكمال نشأت، وكاتبا القصة المعروفان: أبو المعاطي أبو النجا، وسليمان فياض.**

"الناشر"

أنطون تشيكوف

من الماضي

"قصة روسية"

كان الجو في بداية أمره منعشًا هادئًا، تنبعث خلال سكونه الأشعري الحالم، زقزقات طير "الأج" الغذبة والمستنقعات، قد حفلت بأجسام ضئيلة حية، ترسل أناث متحشرجة محزنة، أشبه بفحيح الأفاعي، وانطلق طائر "البكاسين"، فرددت الريح صدى طلقات الرصاص، التي صوبت نحوه، غير أنه حينما بدأت الظلمة الحالكة، تنشر على الكون غلالتها السوداء، هبت من ناحية الشرق ريح نفاذة، وغاص كل شيء في بحر من الصمت العميق.. وعلت البركة طيقة متماسكة من الثلج، وإذا الغابة كلها قفر، يثير الخوف والرهبة.

لقد بدأت مظاهر الشتاء تنم عن نفسها في المكان!

وكان إيفان فيلكوبولكني – وهو ابن أمين مكتبة الكنيسة، وطالب بالمجمع الكنائسي – عائدًا إلى بيته، بعد قضاء يوم حافل بالمغامرات والصيد، كانت أنامله قد أصابها شيء من التخدير،

ووجهه. لقد أتقد بهبات الريح.. وخيل إليه أن ذلك البرد، الذي اجتاح فجأة، قد أفسد على الأشياء رونقها، وأن الطبيعة ذاتها، قد خامرها القلق، وساورها الاضطراب، وهكذا بدا له الأمر، وكأن العتمة قد بدأت تخيم على الأرض بأسرع مما كانت عليه من قبل.

كان كل ما حوله من مظاهر الحياة .. مهجورًا ومثيرًا للاكتئاب!

ولم يكن هناك بارق من الضوء يومض في غير "حدائق الأرامل".

وكانت القرية – وهي على مسافة ثلاثة أميال – وكل ما تقع العين عليه، سابحها في ضباب المساء.

وتذكر الطالب، أنه حين غادر بيته، كانت أمه تفترش الأرض عريانة القدمين، تنظف وعاء الشاي، بينما كان أبوه جالسًا على مقربة من الموقد، يعاني آلام السعال.

ولما كان اليوم هو الجمعة الحزينة، ولم يطبخوا شيئًا، فقد استشعر لذعات الجوع، تقرص أمعاءه.

ودار بخاطره، أن مثل هذه الموجات من البرد، كانت قد اجتاحت أيام "رادك" و"بطرس" و"إيفان الجبار"، وأن الفقر المدقع والجوع المهلك، كانا قد تفشيا في زمنهم، وكذلك أيضًا، نفس تلك

السقوف التي صنعت من القش، والتي اتخذت منها الخروق والثقوب العديدة موطنًا لها، بمثل ما كان الجهل والبؤس وتلك الحيرة والظلمة والضجر.. حقلًا خصيبًا، تنمو فيه نفس هذه الأحزان يومًا بعد يوم.

لقد حدث ذلك في عهدهم بلا مراء ولا جدال.

ثم ها هي ذي ألف عام، تدور على أسطوانة الزمن، بينما الحياة هي .. هي .. لا يعتريها تقدم .. ولا تحسن!!

كان أمرًا بغيضًا إلى نفس الشاب، أن يعود الآن إلى بيته!

وأما "حدائق الأرامل"، فيرجع السبب لإطلاقهم هذا الاسم عليها، إلى أن أرملتين – أمًّا وابنتها –كانتا قد آلتا على نفسيهما، أن تتعداهما بالرعاية، وأن تسهرا على شيءونها.

كانت هناك نار مضيئة مشتعلة، وأصوات طقطقة صاخبة، يحملها الأثير إلى مسافات شاسعة فوق الأرض المحروثة، بينما كانت الأرامل "فازيليا"، وهي بدينة الجسم فارعة القامة، ترتدي سترة رجل واقفة إلى جانب النيران، تحدق بعينين شاردتين، تنمان عن التفكير العميق، والاستغراق في عالم غامض مبهم. وكانت ابنتها "ليكريا" جالسة على الأرض، تنظف الملاعق والصحاف، وهي امراة ذات نظرة متبلدة فاترة، انتشرت على وجهها آثار الجدري.

كان واضحًا، أن الأرملة وابنتها، قد فرغتا من تناول عشائهما منذ برهة.

ومن بعيد تصل إلى الآذان، أصوات العمال، وهم يسقون جيادهم من النهر.

اتجه الطالب صوب النار، وقال:

لقد عاد الشتاء مرة أخرى. مساء الخير.

ارتاعت فازيليا.. غير أنها تبينته لتوها، فارتسمت على شفتيها ظلال إبتسامة رقيقة، وقالت:

إنني لم أعرفك! فلتحرسك عناية الله... سوف تصيب ثراءً واسعًا.

ثم أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث..

كانت "فازيليا" ذات خبرة كبيرة، إذ اختلطت بالطبقات العالية، حيث عملت في بيوتهم وصيفة، ثم مربية للأطفال.. فراحت تطرق أبواب الحديث بلباقة ورقة، دون أن تفارق شفتيها إبتسامة ناعمة مشرقة، أما إبنتها "ليكريا"، وهي امرأة ريفية، أشقاها زوجها بسياط معاملته القاسية، فقد سمرت عينيها على وجه الطالب، دون

أن تشارك ف الحديث، وكانت تلوح على وجهها سمة كالتي نراها عادة، ودائمًا على وجوه الصم والبكم.

حرك الطالب يديه حول النار، ينشد الدفء وهو يقول:

لقد كان القديس بطرس، يدفئ نفسه على مثل هذه النار، فلا ريب إذن، أن الجو كانت تسوده البرودة آنذاك .. أه .. لابد أنها كانت ليلة مروعة يا جدتي، ليلة طويلة مشيءومة!

ثم أدار بصره إلى تلك الظلمة الدامسة المحيطة به، وهز رأسه في تأثر بالغ، وهو يقول مخاطبًا "فازيليا":

لا شك أنك كنت تطالعين في الإنجيل الاثنى عشر؟

أجابت فازيليا:

– نعم.. إنني دومًا أتردد على قراءته.

قال:

– هل يعلق بذاكرتك أن "بطرس" قال في العشاء الأخير "إنني متأهب تمام الأهبة لأن أخوض برفقتك معمعة الظلمة والموت "حين أجاب مولانا السيد" إنني أقول لك يا بطرس إنك ستشرك بي ثلاثا

قبل أن تصيح الديكة، وخرج يسوع عقب العشاء إلى الحديقة، يوقد له نيران الموت!

وكان بطرس المسكين خامد النفس، واهن القلب.. وكانت عيناه مثقلتين بالنعاس، فهمزمها النوم.

ولقد أدركني أن "يهوذا"، تقابل و"يسوع" في تلك الليلة نفسها، وأفشى أمره إلى مضطهديه، وأنهم أدوا به إلى الكاهن الأكبر مغلولًا.. فضرب كثيرًا!! ..

واستيقظ بطرس من نومة متثاقلًا، وهو يتوقع أن الشيء الخطير المفزع سوف يحل بالأرض. لقد كان يحمل ليسوع الحب والتقدير الشديدين.. وها هو ذا يسوع يضرب الآن على البعد!

ألقت ليكريا بالملاعق من يدها، وأدارت بصرها إلى الطالب، الذي مازال يستطرد في القول:

فلما مضوا إلى حيث يقيم الكاهن الأكبر... راحوا يمطرون يسوع بوابل من الأسئلة، بينما أشعل الرجال النار في الفناء، يصطلون واندسَّ بطرس بينهم، يدفئ نفسه كشأني الآن هنا.. فرأته إحدى النساء فصاحت:

لقد كان هذا مع يسوع.. أيسوع أيضًا ؟ "ومعنى ذلك أنه ينبغي أن يستجوب كذلك:

ولابد أن جميع العمال قد نظروا إليه في ارتياب وحذر.. إذ استولى عليه الارتباك.. فقال:

كلا .. إنني لست أعرفه.

وما هي إلا دقائق مضت.. حتى عرف شخص آخر أن هذا الرجل من تلاميذ يسوع، فقال: "إنك أيضًا أحدهم"

لكن بطرس آثر الإنكار للمرة الثانية.

غير أن شخصًا آخر تحول إليه، وقال: "كيف هذا؟ ألم أشاهدكما معًا في الحديقة اليوم؟..

فأصر بطرس على ألا يعترف للمرة الثالثة.

وفي تلك اللحظة، انبعثت صيحة الديك، فنظر بطرس إلى يسوع على البعد، واجتر في ذاكرته تلك الكلمات التي تفوه بها في المساء، حين قال له: "إنك ستشرك بي ثلاثا قبل أن تصيح الديكة".

وعندما استعادت ذاكرته هذه العبارة.. عرته رجفه من الألم الممض، مغادرًا الحديقة، وقد أرخي العنان لمقلتيه، تذرفان الدمع الحار.

والأنجيل يقول: "لقد انصرف والدمع السخين يهطل من عينيه مدرارا".

إنني لألمس ذلك الآن واضحًا جليًا.. فها هي ذي الحديقة، يغمرها الظلام، ويخيم على أرجائها السكون.

وفي ذلك الهدوء الشامل، اختنق صوته بالعبرات حتى توقف الكلام في حلقه.

وتنهد الطالب عميقًا.. ثم استغرق في التفكير.

كانت فازيليلا لازالت على شفتيها الإبتسامة المشرقة.. غير أنها غصت بلعابها بغتة.. وانحدرت الدموع على وجنتيها المتوردتين، وكأنما أخجلها أن تبكي، فوارت وجهها بطرف ثوبها، أما ليكريا فكانت عيناها تحملقا في الطالب في نهم وشراهة، حين تصاعد الدم إلى وجهها، وبدت على سحنتها علامات التبرم، كأنما تعاني ضيقًا شديد الإبلام. وكان العمال قد إنقلبوا عائدين من النهر، بعد أن أطفأوا ظمأ جيادهم، ومر واحد منهم بحذاء الدار ممتطيًا جواده، بينما الأضواء تبرق متماوجة على جسده، عندئذ حيا الطالب الأرملتين، وودعهما، ثم غاص في الظلام مرة أخرى، وقد سرى التخدير في أنامه.

كانت الريح تعصف وتهب، حتى لكأن الشتاء قد عاد حقيقة.. ولم يكن هناك من الدلائل ما يوحي بأن شمس العيد سوف تشرق في الصباح الباكر.

في تلك اللحظة، كانت خواطر الطالب منصرفة إلى فازيليا.

"لا ريب أن نشجيها هذا له صلة بما وقع لبطرس في الليلة التي طويت قبل صلب المسيح"

وانسابت إشعاعات من بصره على ما حوله، إذ كان الضوء لا يزال يلتمع في بهمة الليل.. غير أنه كان وحيدًا.. ولم يكن بجانبه آدمي ما.

وأجهد الطالب فكرة ثانية، في أنه مادامت فازيليا قد بكت.. ومادامت ابنتها قد اضطربت.. فلا ريب أن ذلك الذي حدث منذ تسعة عشر قرنًا، والذي أفضى بالحديث عنه الآن.. لا ريب في أن هناك خيوطًا قوية، تربط ذلك الشيء بالحاضر.. بهاتين المرأتين.. بالقرية الرابضة في الخلاء.. بنفسه.. بالعالم كله!

لقد أجهشت تلك المرأة العجوز بالبكاء.. لا لأنه عرف كيف يروي لها القصة بأسلوب له وقع السحر في النفس.. وإنما لأن "بطرس" متصل بها.. قريب منها.. ولأن ما ساور دخيلته، قد هز كيانها واستحوذ على مشاعرها.

وطغت عليه موجة من الفرح بغتة.. فوقف.. ليتنفس.. وفكر هنيهة.. قائلًا:

ألا أن الماضي لمتماسك بالحاضر.. بحلقات من الحوادث، تربط بعضها بعضا.

وخيل إليه، أنه أدرك كنة هذه الحلقات، فهو حين يقبض على حلقة.. تتحرك الأخرى.

ثم خاض النهر في أحد القوارب، وصعد إلى التل، ووقف يرنو عبر قريته، ثم إلى الغرب، حيث يلوح في الأفق البعيد خيط واه من النور خلَّفته الشمس الحمراء، وظن أن الجمال المبدع، والحق الخالد، اللذين قادا ركب البشرية الموَّاج.. هنالك في الحديقة.. وفي فناء الكاهن الأكبر.. مازالا على جبروتهما حتى الساعة.. بل إنهما أحوج ما تكون إليه الإنسانية.. وذلك العالم الأرضي!

وشيئًا فشيئًا.. بدأ يستشعر الحيوية والقوة.. وذلك الترقب الجياش للسعادة.. وهو ترقب لا يمكن الإحاطة بكنهه.. ترقب لسعادة مجهولة غريبة.

وانقشعت السحب من أمام عينيه.. فبدت الحياة رائعة .. زاخرة بشتى المعاني النبيلة.

ف باركوس.

الطفل

"قصة أمريكية"

طرقت السكرتيرة الحسناء باب المكتب، وقالت تخاطب المستر مارتان مدير الشركة:

– بالباب سيدة تود – في إلحاح – مقابلتك.

فرفع وجهه من فوق الأوراق المتراكمة أمامه، متسائلًا:

بصوت أجش، تبدو فيه الصرامة والغلظة.

تود في إلحاح مقابلتي؟

– نعم، وقد أديت لها العذر في أن لديك أعمالًا هامة تشغل كل وقتك.. وأنه لكي تقابلك، يجب أن يكون هناك موعد سابق محدد.. غير أنها لم تزدد إلا إصرارًا وإلحافًا.. وأخبرتني أنها قادمة من بعيد، وليس في إستطاعتها أن تعاود المجئ مرة أخرى.

فضرب مارتان بيده على المكتب في غضب وقال: كان في مقدروك أن ترغيمها على الانصراف بشيء من اللباقة..

فأجابت السكرتيرة في عناد:

- لقد حاولت، فلم أوفق. فهي شديدة الرغبة في أن تقابلك..

وإنه يبدو لي من خلال صوتها، أنها تستحق الشفقة والعطف.

فقال مارتان هازئًا:

امرأة تدافع عن امرأة.. لو أن سكرتيري كان رجلًا، لعرف الآن كيف يحملها على الانصراف.. وعلى أية حال، هل أخبرتك عن اسمها؟

لقد رفضت أن تذكره لي..

إئتيني بها.. وليكن ما يكون.

وبعد برهة.. كانت تقف على عتبة الباب امرأة في العقد الثالث من عمرها، وقد رانت على معالم وجهها مسحة من الصمت الجامد، بينما مشيتها تنطق بالكبرياء والاعتزاز بالنفس.. وبعد أن أغلقت السكرتيرة الباب، ورفع مارتان وجهه عن الأوراق مرة أخرى، وراح يتأمل وجه الزائرة خلال منظارة المكبر، برهة. ثم بدا عليه أنه يعرفها، فقد رفع حاجبيه في شيء من الدهشة وقال :

- روث ؟!!

غير أن الدهشة التي صاحبته، كانت تدل على أنه غير مرتاح إلى لقائها..

وانفرجت شفتا روث عن إبتسامة رقيقة وقالت:

- أجل .. أنا .. روث.

- لقد أنقضى زمن طويل منذ أن التقينا لآخر مرة سنوات كثيرة.. سبع سنوات على ما أذكر.

أجابت في صوت هادئ، وكأنها تحاول ألا تستعيد تلك الذكريات:

- نعم.. سبع سنوات كاملة.

- لقد أسعدني لقاؤك كثيرًا.. ولكن.. كيف حالك اليوم أنت..

- و...روى؟

- صمتت لحظة، ثم قالت:

- لقد كان الحال على ما يرام. ولقد منحنا الله طفلًا جميلًا.. غير أن روى يعاني مرضًا شديدًا.. وقد أشار عليه الطبيب أن يسافر إلى الخارج لمدة عام لا يزاول فيه عملًا من الأعمال، كي يتسنى له أن يستعيد صحته.. وإلا..

- وكفت روث عن الحديث، فسألها مارتان في تحفز.

- وإلا ماذا؟

- وإلا كان مآله القبر.

- فقال مارتان متسائلًا:

- وطبعًا أطاع روى إستشارة الطبيب وقرر السفر؟

- كلا!

- لماذا!

- إن السفر يتطلب نفقات، وليس لدينا مال، ولذلك زرتك اليوم، أطلب منك أن ترد إلى روى الألفي دولار اللتين سرقتهما منه منذ سبع سنوات.

كان صوتها جافًا، فقال مارتان ثائرًا:

- يا لك من حمقاء! كيف تجرؤين على توجيه هذه الإهانة إليّ؟

ولم تتحرك روث من مقعدها قالت في هدوء:

- إهانة ؟ هل تنكر أنك سرقته؟

كظم مارتان غيظة وقال:

– إن سلوكك هذا لا يدهشني. لاشك أنك تعرفين أن زوجك، قد استثمر ألفي دولار في الشركة، فإذا أفلست الشركة، وأخفقت الأعمال، أتيت هنا ترمينني بالتهم، وتزعمين أنني سرقت أموال زوجك؟!

ولكنك يا صاحبي لا تجهل أن الشركة كانت على حافة الإفلاس، بل كانت مفلسة فعلًا، في الوقت الذي ساهم زوجي فيها، والأدهي من ذلك، أنك دعوته إلى المساهمة، وأنت مديرها، وعالم بحالها، والذي آسف له أنك لم تكتف بذلك، بل ضاعفت من مرتبك ونفقاتك، فلما أفلست الشركة، غادرت البلدة، واختفيت، خبرني في أي شريعة بحق لمدير شركة مفلسة، أن يضاعف مرتبه ونفقاته؟

ألست أنت الذي حرضتني على أن ادفع بزوجي ليشترك وإياك في الشركة المزعومة؟

قال مارتان في دهاء:

– إذن كان لك عليه نفوذ كبير ..

– بلا شك، إنني لا أجهل ما ترمي إليه من وراء هذا السؤال، لقد كنت تعتقد يا مارتان أنني أعشقك، ولكن الحقيقة أنها كانت أيام

نزق وطيش، ولو لم أكن طائشة، لما اشتركت في تدبير المؤامرة التي سلبت بها زوجي ألفي دولار!!

والآن.. هل ستعيد إلي ذلك المال؟

– كلا بالطبع.. فإن الخسارة، قد لحقتني تمامًا، كما لحقت زوجك بإفلاس الشركة.

– هذا كذب!

نهض مارتان واقفًا وقال في ثورة غاضبة:

– اغربي عن وجهي أيتها الماكرة.. إن هذه الإهانات لا أحتملها منك، غادري مكتبي حالًا.

– حسنًا.. سأغادر مكتبك الآن.. ولكن أرجو أن تفسح لي صدرك لأضارحك بشيء قبل أن أغرب عن وجهك يا مستر مارتان.

إن الشيء الوحيد الذي يؤرق روى، هو أن صحته تحول بينه وبين إعانتنا على مواصلة الحياة.. أي لا تمكنه من أن يعولنا.. أنا وابني. وهو دائمًا شديد القلق علينا.. وكل الذي أخشاه، هو أن يدفعه اليأس إلى التخلص من تلك الحياة، ولكن الذي عزمت عليه، هو أنني إذا عدت إلى البيت سأحدثه بشيء يصرفه عن الاهتمام بأمرينا..

قال مارتان يسألها بفضول:

- افصحي، فإن في كلامك غموضًا

- هذا الشيء الذي سأفضي به إلى زوجي..

هو أن الطفل الذي يظنه ابنه ليس في الواقع إلا ابنك أنت.

حين سمع مارتان هذه الكلمات، امتقع وجهه، وامتدت عليه ظلال من أحاسيس الاضطراب.

واستطردت روث تقول:

- ماذا حدث يا عزيزي مارتان؟ إنني أراك شديد الاضطراب منذ سبع سنوات.. عقب ساعات الطيش التي عشناها معًا.. وعقب سلبك زوجي الألفي دولار.. خرجت من المدينة.. والآن بعد شهور قليلة سيبلغ الطفل سبع سنوات .. فهل أدركت أنه ولدك؟

أجابها مارتان في حدة:

- إني لا أصدق حرفًا مما تقولين!

هزت روث كتفيها بلا اكتراث وقالت:

تصدق أو لا ستصدق، فإن هذا لا يضرني، ولكن ثق تمامًا، إن زوجي يصدق هذا القول، وسوف لا ينكر منه شيئًا، فليس من

المعقول، أن تعترف زوجة لزوجها زورًا، بأنها عبثت بشرفه، وأن من يظنه ابنه ليس إلا ابن عشيقي، ثم أن الطفل شديد الشبه بك، وسوف أدل روى على مواضع الشبه بينكما، وعندئذ سيعرف قطعا صدق حديثي. قال مارتان محاولًا أن يصرفها عن هذا الرأى:

– ولكنك بهذا سوف تثيرين الشبهات حول نفسك! وستقضين على سمعتك!

– نفسي وسمعتي؟ ليكن! لقد لوثت شرف روى.. وبددت أمواله وأغريته على أن يلقى بها إلى السارق.. والآن أرى صحته تتدهور.. وأصبح مفلسًا.. فهل تظن أن قيمة الدنيا ستأخذ حيزًا من تفكيري بعد هذا؟ إنه ليحزنني أن أراه دائم القلق والحزن.. لا يفكر في شيء سوى مصيري ومصير الطفل الذي هو طفلك، ولا شك أنه حين يقف على حقيقة الأمر.. سوف لا يهتم بأمرينا.. نعم سيكرهني.. سيمقت الزوجة التي عبثت بشرفه.. وكذلك الطفل.. حين يدرك أنه ثمرة سفاح!

قال مارتان صائحا:

– يخيل لي أنك جننت!

– جننت! لست على أي حال، أعير قولك اهتمامًا، لقد كان روى شهمًا وكريمًا معي.

– إن زوجك مريض وفي أزمة مالية.. فهل تريدين أن تزيدي من همومه، وتثقلي من آلامه بإفضائك إليه ذلك السر الخطير؟

– لقد قررت فيما بيني وبين نفسي الإدلاء إليه بهذه الحقيقة فقال مارتان متهكما:

– يا لك من زوجه مخلصة! زوج متقاعد مريض.. تأتي زوجته الوفية المشفقة، فتضاعف من أحزانه وهمومه!!

– تهكم ما شيءت، فإنني على يقين من أن روى لا يعاني من أجل نفسه، وإنما من أجلي أنا والطفل.. وإن الذي أرجوه من وراء هذا الاعتراف، هو أن يتخلص من قلقه علينا، وهذا هو السبيل الوحيد لإنقاذه.

– السبيل الوحيد.. كيف؟

– أجل.. لقد أمن روى على حياته لقاء مبلغ كبير، ولقد لاحظت عليه في الأيام الأخيرة، أنه مشغول بالبحث عن مستندات التأمين، وقرأت ما يجول في عينيه، وإني لا أستبعد أنه ينوي الانتحار.

قال مارتان منفعلًا:

– ولكن، ألا تدركين يا حمقاء، أن وقوفه على السر سيدفعه إلى التخلص مني لا محالة؟

فقهقهت روث قهقهة عالية وقالت:

- وماذا يهمني من أمرك إذ هو قتلك؟

إنني لم أعد أحفل بك، أو أحبك.

وجلس مارتان إلى مكتبه، التقط دفتر الشيكات وهو يتمتم:

- لكنني لا أود أن أموت.

وكتب لها شيكا بألفي دولار، أخذته روث، وانصرفت، وفي طريقها قالت تحدث نفسها:

- يا له من غبي أبله! لقد خدعته وقلت له إن الطفل ابنه، وأنه يبلغ من العمر سبع سنوات.. ولو أنه أدرك الآن أن ابني الوحيد الذي رزقته عمره عام واحد.. لطار صوابه!!

وليم سارويان.

حفنة من الفقراء

"قصة أمريكية"

ذات صيف.. التحقت بالعمل لمدة شهرين في محل بقالة،كنت أشتغل من الرابعة بعد الظهر، حتى منتصف الليل، وإن كنت بعد الثامنة مساءً لم أكن أجد ما أعمله سوى أن أتطلع من نافذة المحل، أو أقوم بجولة حول البضاعة، أنسقها، وأضع كل شيء في مكانه!

والمحل الذي اختار له صاحبه موقعا في حي "جروف" الفقير جدا، ولم يكن كبيرًا، وبالتالي كان الزبائن فقراء فقرًا مدقعًا، اثنان فقط أو ثلاثة من المترددين على المحل، لم يكونوا يسرقون شيئًا، وهؤلاء لم يكن لديهم أطفال صغار.

أما الباقون، فلم يكونوا يغلون أيديهم عن السرقة. كانوا دائمًا يسرقون أكثر مما يشترون، وكانوا في حاجة إلى ما يسرقونه، لأنهم لا يملكون ثمن الحصول عليه.. ففي اللحظة التي أدير لهم ظهري..

يستطعيون مثلًا أن يخفوا في جيوبهم "باكو" من اللبان.. أو بعض الكعكات الصغيرة.. أو علبة صلصة محفوظة، وكنت ألاحظ هذه السرقات.. ومع هذا لم أكن أضبطها، فقد كانوا طيبين بقدر ما كانوا فقراء!

وذات مرة.. في شهر أغسطس على وجه التحديد.. حاولت إحدى السيدات أن تخفي بطيخة خلف سترتها، لكم أحزنني هذا المشهد تمامًا، كانت المرأة في حوالي الخمسين من عمرها.. أو يزيد قليلًا وكان واضحًا أنها تعاني من الارتباك والاضطراب.. فقد أنفقت أكثر من خمس دقائق في المحل، تسأل عن أسعار كثير من الحاجات الموجودة لدينا، تسأل وفي نفس الوقت، تتذوق المشمش والخوخ والتين.

قلت لها: إن دستة التين بعشرة سنت.

واستطردت قائلًا لها:إن التين جيد جدًا.

فقالت لي: إنه يبدو كذلك ولكن.. هل هو جيد حقيقة؟

عندئذ طلبت منها أن تتذوق واحدة.. فترددت لحظة، ثم تناولت تينة كبيرة من القفص، وراحت تلتهمها، وهي غارقة في التفكير، كأنها تتذوقها على أساس الاختيار والفحص، ثم ابتلعتها في ثلاث قضمات!

إنها امرأة على أية حال.. تستطيع بشيء من الإثارة، أن تحصل على بغيتها من محل البقالة، ومع هذا لم يكن في سلوكها ما يشير إلى هذه الإثارة، بل لقد أحسست أنها مندهشة من الطريقة التي حصلت بها على البطيخة.

دون أن يخدش أحد كرامتها!

ومن القليلين الذين كانوا يترددون على المحل، دون أن يرتكبوا محاولات السرقة، رجل إسباني قصير اسمه "كاسال" ضئيل الجسم، كبير الرأس، وفي وجهه ملامح حزينة، تدفعك إلى أن تغمره بعواطفك، وتعجب به على الفور، كان معتادًا أن يأتي إلى المحل في العاشرة من مساء كل يوم ، يبقي به نصف الساعة، ينفقها كلها في الحديث، ولعل من ميزاته أيضًا، أن شخصيته كانت تتسم بالإباء والشمم. لهذا كنت أمنحه كل احترامي، وكان يبدو على "كاسال"، أنه لا يعرف شيئًا بالمرة، لقد خيل لي أنه لم يقرأ جريدة خلال عشر سنوات كاملة. لم يكن لديه أدنى فكرة عن الحياة التي تسود الحي الفقير وحديثه، لا ينضح بأية شكوى من التي تتضح بها شفاه الفقراء عادة في حي "جروف"، كل ميزات الرجل، أنه ضئيل الحجم.. وإنه يحمل على كاهله ثمانية وأربعين عامًا أو أكثر أو أقل، ولعل من سماته المميزة أيضًا، هذه النظرة الهادئة التي تفصح عن رغبته في الهدوء بقية أيام عمره!

المهم، أنني بدأت أعرف تدريجيًا لماذا يبدو الرجل أبيا ولا يهوى الشكاية مثلما يهواها الآخرون. كان أبا لابن في السادسة عشر، وكان ابنه فارعًا، ووسيمًا، وفيه من ملامح أبيه رأسه الكبير، وكان الأب فخورًا بابنه كل الفخر.

قال لي "كاسال" في إحدى الأمسيات فجأة، ودون مقدمات:

– هل تعرف ابني؟ إنه ولد رائع، فارع، وسيم، وذكي، أتدري لماذا؟ إنني عندما أعود مساء كل ليلة من العمل، يبادرني قائلًا: "أبي اقفز فوق كتفي"، وأقفز فوق كتفيه فعلًا، فيحملني، ويجري بي داخل المنزل، حتى نصبح وجهًا لوجه أمام مائدة العشاء، فينزلني من فوق كتفيه.

وفي أمسية تالية قال لي "كاسال":

– سأخبرك لماذا يبدو ابني هذا الابن الرائع؟ لقد ماتت أمه بعد ولادته، لم يعرف أمه أبدًا، عاش طفولته وحيدًا، وكنت أحرص على أن أذهب إلى البيت وقت الغذاء، كي أطمئن عليه أحيانًا، كنت أجده يبكي، وأحيانًا أخرى، أجده ساكنًا، وكأنه يتوقع حضوري، كان يراني فيتوقف عن البكاء، وعندما أصبح عمره عامين، بدأ يعرف موقع يتمه من هذا الوجود، والنهاية التي انتهيت إليها أمه، وبعدها أصبح الأمر سهلًا بالنسبة إليه، وبالنسبة لي أيضًا، يجب أن تعرف مدى ما وصل إليه من نضج أولًا.. ألا تحس الآن بالحب نحوه؟

قلت مبهورًا:

– اعتقد أنه ولد رقيق.

– حسنا، إذن ساحكي لك، تصور أنه يريد أن يمنعني من العمل! يريد أن يشتغل بدلًا مني. إنه يقول لي دائمًا "لقد تعبت بما فيه الكفاية يا أبي"، وهو يجيد الأعمال الميكانيكية، يستطيع أن يلتحق بوظيفة ميكانيكي في ورشه كبيرة، أتدري بماذا أجبت؟ لقد رفضت رغبته قلت له "ياجو" أنت في طريقك إلى الجامعة".

إنه ولد ممتاز، ولابد أن أدخله الجامعة، ولد زكي، وسيم، ورائع، ويجب أن أكدح من أجله.

قلت له:

– بالتأكيد.

.. وهكذا كان "كاسال" واحدًا من الزبائن المحبوبين الذين يترددون على المحل منذ أن عملت به.

وزبون آخر.

كانت فتاة في الثانية عشرة، شعرها ذهبي، واسمها "ماجي"، كان يبدو عليها الحيوية شأن بعض الأطفال الفقراء، وتبدو أكثر الفتيات سعادة في هذا العالم!

اعتادت "ماجي"، أن تأتي إلى المحل، وعلى شفتيها ابتسامة مشرقة في صفو السماء.

كانت تضحك دون مقدمات، وكأنما جاءت خصيصًا، لتضحك، وكان ذلك يسعدني دائمًا، وإن كنت لم أشعرها بذلك، ولهذا كانت تبالغ في ضحكتها.

– ماذا تريدين يا فتاتي؟

قالت: وهي غارقة في الضحك.

– أنت تعرف.

هل تريدين رغيفًا من الخبز؟

– خبز؟!

– إذن ماذا تريدين؟

– وغمزت بطرف عينيها قائلة:

– وماذا عندك؟

ولم يكن في استطاعتي، أن أفعل مع هذه الفتاة سوى أن أقدم لها خوخة لتتذوقها:

قالت وهي تمضغها بشفتين ناضجتين:

- يقولون إنني نسخة طبق الأصل من جنجر روجرز.

- إنهم كذابون!

- أنا معك، ولكن هل تحب جنجر روجرز؟

- إنها فاتنة.

وأنا أريد أن أكون فاتنة مثلها.

- وأنت في الثانية عشرة من عمرك؟!

ومن هذه الفتاة عشرات الفتيات في المدينة!

وزبون آخر.

إنه طفل صغير، لا يملك درهما في جيبه، ومع هذا يأتي إلى المحل دواما من أجل التطلع فقط، طفل في الرابعة من عمره، لقد اعتدت أن أناديه "كلافين"، كان ينفق ساعة كاملة، يتطلع إلى محتويات المحل دون أن ينطق كلمة واحدة، كان يخيل لي، أن الزبائن يمكن أن يدوسوا فوق قامته القصيرة جدًا، لكنه كان يقف في مكان ثابت، وكأنه ملتصق به، بينما عيناه فقط هما اللتان تتحركان في جولة التطلع الدائم.

في إحدى الأمسيات، ربتت السيدة التي سرقت البطيخة فوق رأسه، وقالت لي:

- أهو ابنك؟

قلت لها:

- نعم.

- إنه ولد وديع، ويشبهك تمامًا، بكم التين اليوم؟

- الدستة بعشرة سنت.

- هل هو جيد؟

- نعم بالتأكيد، لقد أكلت واحدة منذ خمس دقائق.

يمكنك أن تتذوقي واحدة.

والتهمت تينة، ثم مالت على الخوخ، فالتهمت واحدة في الوقت الذي كانت تلتقط بيدها الأخرى إحدي حبات المشمش، وفي هذه الأمسية، لم تشتر شيئًا، لقد لبثت واقفة عشر دقائق، دون أدنى محاولة للشراء، ولقد عرفت بعد ذلك أنها جاءت فقط لتسألني إن كان من الممكن أن أقرضها ٢٥ سنتا حتى الغد، لكنها لم تجرؤ على السؤال.

كل ما قالته:

- إننا سعداء، لأننا نعيش في كاليفورنيا، أليس كذلك؟

– إنني لم أغادر هذه المدينة، هل هي تختلف عن المدن الأخرى؟

قلت بانزعاج:

– أوه، لماذا؟ إن هناك مدنا، لا تستطيع أن تتنفس فيها خلال فصل الصيف "شيكاغو" مثلًا، الجو هنا رائع وجميل.

كانت السيدة تقف قريبة من الباب، حين قالت وذراعها يشير إلى السماء:

– إن الهواء هنا منعش جدًا.

وانصرفت المرأة.

عندئذ ناديت "كلافين" فجاءني في الحال قلت له:

– هل تحب حلول العرقسوس؟

ولم يجب، كان واضحًا أنه يحب العرقسوس، لكنه لا يريد أن يتكلم.

قلت له مستطردًا:

– أصعد هنا وخذ أى شيء تريده.

وصعد الطفل، فأصبح أمام أكياس الحلوى، لكن يده لم تمتد إلى واحد منه.

– خذ أي شيء تريده يا كلافين.

وتطلع إلى وجهي لحظة في نظرات مستريبة.

– تناول ما تريده، لا تخجل!

ولم يرد أن يصدقني، وإن كان أحس أنني أنقذه من خجله قليلًا:

– تناول ما تريد.

وامتدت يده الصغيرة، فتناولت كيسًا من العرقسوس.

– خذ أي شيء آخر معه.

ووضع كيس العرقسوس فوق ظهره، حاول أن يمضي بأسرع ما يمكن، لكنه توقف حين ناديت عليه:

– لا يا كلافين، على مهلك، حتى لا يسقط منك الكيس.

وليلتها.. أحسست بمنتهى السعادة، وأنا أضع ثمن الكيس فى درج الخزينة، أحسست أنني أدفع ثمن الشجاعة التى أستمدها كلافين من حديثى معه، والتى لابد سيلقانى بها غدًا.

وفى اليوم التالي.

جاءني كلافين، قال لي في صوت هادئ ودون خجل:

- لقد كان العرقسوس لذيذًا.

قلت له:

- إذن، سأتذوقه أنا الآخر.

وعندئذ ناولته واحدة، وتناولت واحدة أخرى، ورحنا نلتهمها معًا في سعادة.

.. لقد كانا شهرين رائعين، عشتهما في هذا المحل في حي "جروف" الفقير، عشت خلالهما وسط نماذج رائعة من الناس، سواء منهم من كان يأتي ليسرق، أو ليشتري ويسرق، أو لكي لا يشتري ولا يسرق، مثلما كان يفعل "كاسال" و"كلافين".

مايكل وست

الغيب

"مسرحية إنجليزية في فصل واحد"

الأشخاص:

- ريتشارد ألين: أستاذ جامعي سابق.
- إدوارد لين: ضابط متقاعد.

المنظر:

"حجرة استقبال بمنزل المستر ريتشارد ألين في "لوتون" إحدى المدن الصغيرة بإنجلترا.

الساعة الخامسة والنصف من أصيل اليوم السادس من يونيو عام ١٩٣٦.

المستر ألين جالس إلى مكتبه يكتب وعلى مقربة منه قصاصات من أوراق مكتوبة، وزجاجة من النبيذ، وكأسان، يتناول الكراسة، فيمزق آخر ورقة سطرها. وحين يلقى بها على المقعد، يصل إلى سمعه دق على الباب، فينهض من مكانه، ويفتحه".

ريتشارد: ادخل يا مستر لين.

إدوارد: "في استغراب" أتعرف اسمي؟!

ريتشارد: كنت أتوقعك.

إدوارد: أظن أن الدكتور "راودن"، تحدث وإياك بشأني، معي رسالة يقدمني بها إليك.. آمل أن لا يزعجك هذه الزيارة غير الرسمية.

ريتشارد: "يتناول الرسالة ويلقي بها على المكتب دون أن يفضها".

" أنا لا أهتم بالرسميات، إنني أمقتها، أتسمح لي أن أتناول قبعتك ومعطفك؟

"يتناولها منه ، ويضعهما على مقعد بجانب المكتب".

" إدوارد جالس".

ريتشارد: "يمسك بزجاجة النبيذ، وينتزع سدادتها، ويفرغ منها في جوف كأسين"،

لعلك تشاركنى الشراب، إنها مناسبة طيبة لنحتفل بك. "أثناء الشراب" في أي يوم نحن؟

إدوارد: في اليوم السادس من يونيو.

ريتشارد: لنشرب حتى الساعة السادسة من اليوم السادس من الشهر السادس عام ١٩٣٦.

إدوارد: "وهو يتناول الكأس": إنها الآن السادسة تمامًا.

ريتشارد: "في فزع لا، ليست كذلك، والآن، أبسط إلى الأمر الذي من أجله أردت أن تراني.

إدوارد: لقد طالعتني إحدى الصحف بمقال، تحدثت فيه عنك باعتبارك الرجل الوحيد المثقف في "لوتون" والأستاذ الجامعي الذي لا يود مطلقًا، أن يتحدث إلى أحد!!

ريتشارد: أكاذيب! أنا لست بمثقف، ولست أستاذًا جامعيًا الآن، ثم إني أتحدث إلى كثير من الناس، غير إني لا أحب أن أجادلهم، وإنني لا أميل عادة إلى بحث الأمور مع الآخرين، لأني لا أجد أية راحة في البحث والنقاش.

إدوارد: أنا لا أظن أن هنا في "لوتون" أناسًا كثيرين، تجد مناقشاتك في نفوسهم هوى. فما "لوتون" غير مدينة صغيرة، يسكنها شرذمة من أغبياء القوم، الذين لا يثرثرون في غير أمور عادية، أشد تفاهة من عقولهم الصدئة، وإذا عن لهم أن يطرقوا باب المناقشات، فهي تدور حول أمور تافهة!

ريتشارد: قد تكون هذه الحقيقة، وقد لا تكون. فأنا لم أقابل غير أفراد قلائل منهم، وإن كانوا قد تحدثوا إليّ بقدر من الذكاء .. إلا أنني متعة في حديثهم!

وأنت .. هل أتيت لتقيم هنا على الدوام؟

إدوارد: أجل .. أجل! لقد اعتزلت عملي، وسأضل هنا بصفة دائمة، إنه ليسعدنى أن ألقاك من وقت لأخر، وسوف تجد في محدثًا، يحسن الجدل في لباقة. إننى لا أفخر بذكائي، ولست أقصد التواضع، فهو أغث من الكبرياء، ولقد ارتحلت كثيرًا، واطلعت بتوسع، وخبرة الحياة، فوقفت على الكثير من خباياها، وإني اعتقد أنك سوف ترتاح إليّ، هل تجد غضاضة في ذلك أو عدم ارتياح؟

ريتشارد: حقا، إنك تملك عقلًا سليمًا، وتستعمله استعمالًا طيبًا، ولكنك سوف لا تتمكن من الوصول إلى السر الذي انطوى عليه، قبل أن أودع الحياة، وها هو ذا اعترافي.

إدوارد: يمكنك أن تثق بي، إنه يبدو لي أنني أعرفك من قبل.

ريتشارد: "وقد تناول وسادة موضوعة على الكتب"، ضع هذه خلف ظهرك لكي تريحك .. أوه .. أجل.

أنت تعرفني من قبل، لقد التقينا في مدرسة القديس أنطوني.

إدوارد: "يتذكر" نعم، لقد تذكرت الآن "ديك ألين" منافسي الخطير، الذي فاز بجوائز المدرسة دوني!

ريتشارد: أجل، لقد كنا زميلين في المدرسة، كنت أنا مثال الطالب الغبي، الذي يتخذ مكانه في مؤخرة الصفوف، وكنت أنت نموذجًا رائعًا للطالب المجد، سواء في عملك أم في لهوك، أما أنا فقد كنت أرتبك في أبسط الأمور. كم كنت أنظر إليك دائمًا بعين الحاسد لنجاحك المرموق.

إدوارد: إنك لم تكن غبيًا كما تعتقد، ولكنك لم تجد من نفسك ميلًا لدراسة المواد والتغلغل في أعماقها، إنك لم تكن عمليًا بالمعني المنشود.

ريتشارد: لم أكن ابدًا عمليًا "لحظة صمت وشرود" ذات يوم، حين كنت في المدرسة، عثرت دون قصد على كتاب غريب عنوانه "قوى العقل الغامضة".

إدوارد: أتقصد قراءة الأفكار؟ أذكر أني قرأت بعض تجارب لهذا النوع. كم كانت مسلية للغاية، فمثلًا الرجل، يفكر في رقم من الأرقام، أو اسم من الأسماء، فتذكره له زوجته، ولكن التجارب لم تكن دائمًا موفقة.

ريتشارد: لا لست أقصد قراءة الأفكار، إن ما أعنيه هو معرفة "الغيب"، ومعرفة الغيب هي إدراك المستقبل والتنبؤ به.

والإنسان الذي يوهب هذا الشيء الخارق، تكون له القدرة على لمس الحوادث قبل وقوعها، قال الكتاب هذا، وقال أيضًا، إن هذه القوى نادرة الوجود جدًا، ففي كل مليون آدمي واحد فقط، هو الذي يملكها، وغالبًا ما يجهل هذا الواحد أنه يملكها!

قال الكتاب إن هذه القوى يمكن تنميتها، وفسر كيف يكون ذلك.

إدوارد: "في دهشة" أنا لا أفهم شيئًا مما تقول، زدني إيضاحًا.

ريتشارد: "متضايقًا" سل نفسك عدة أسئلة عن أشياء، تتوقع حدوثها، دون أن تشغل عقلك بشيء آخر غيرها.

وعندئذ، سوف تتوارد الإجابات على ذهنك.

إدوارد: هذا هراء! إنه غير ممكن، وليس لمخلوق القدرة على التنبؤ بالغيب.

ريتشارد: أرجوك، لا تقاطعني، أنصت إلى قصتي العجيبة.

لم أكن سوى غر صغير غير مصدق ما يضمة هذا الكتاب بين دفتيه، وهل هو حقا يحمل عوامل الصواب، أم لا؟ حاولت بادئ ذي

بـدء أن أتنبـأ بأشـياء صـغيرة علـى سـبيل التجربـة، فمـثلاكنـت أسـأل نفسي: من الذي سيقتحم عليّ الغرفة في اللحظة القادمة؟ وخطت محــاولاتي خطـوات واســعة، حتــى أقــدمت علــى ذلــك الاختبــار التاريخي، الذي كنت أخشاه لاعتقادي الراسخ بأنه نوع من الخداع، وذلك حين حاولت التنبؤ بالأسئلة التي سوف تلقى عليّ.

إدوارد: ومـاذا كانـت النتيجـة؟ أذكـر أنـك صـعدت فجـأة إلـى القمة، وصرت تبزني بعدها في كل الامتحانات.

ريتشـارد: نعـم، لقـد كنـت دائمًـا احمـل لـك فـي صـدري الحقـد والحسد لتفوقك علي، ولكن بعد ذلك، بدأ نجمي في الصعود.

وأخـذت أحـوز السـبق فـي السـاحة بعـد أن اصـبحت مخادعًـا عبقريًا.

أجـل، إننـي أعتـرف الآن، بـأن نجـاحي كـان خدعـة كبيـرة، ثـم سارت حياتي فيما بعد على تلك الوتيرة، وهذا سر فشلي.

إدوارد: ولكنـك بتلـك القـوة الخارقـة، تسـتيطع أن تنـال قسـطًا وافرًا من النجاح.

ريتشــارد: انتبــه، لقــد كســبت جــائزة مدرســية كمــا تعــرف، ثــم حصـلت علـى مجانيـة التعلـيم الجـامعي، وكـل جـائزة جامعيـة تقـدمت إليها، وصرت في طليعة المتقدمين، ولم يجرؤ أحد على منافستي،

فلما نلت إجازة التدريس عينت أستاذ بالجامعة، وأذكر أني كنت أحدث أستاذ، تولى ذلك المنصب.

وبعدها.

إدوارد: "في تحفز" ماذا حدث؟

ريتشارد: قدمت استقالتي، لقد كان يجب علي أن أستقيل، كنت أجهل المادة التي أقوم بتدريسها، وهي الأدب الإنجليزي، إذ كان عقلي لا يحمل سوى القدر اليسير، الذي اجتزت به الامتحان، أعني الأسئلة التي تنبأت بها، ودرست الإجابة عليها.

إدوارد: وماذا كان من أمرك بعد؟ هل وفقت في الحصول على عمل آخر؟

ريتشارد: أرسلت طلبات عدة، ضاعت معها محاولاتي أدراج الرياح، غير أني في النهاية وفقت إلى عمل متواضع، كمدرس عادي، ولكني استقلت!

إدوارد: "في تعجب" استقلت؟ كيف ذلك؟ إني أعتقد أنك سوف تكون مدرسًا موفقًا، لاسيما وأنك ستعرف مقدما أسئلة الامتحانات، وسينجح تلاميذك بفضل إرشادك إياهم إلى الإجابة الصحيحة.

ريتشارد: "في أسف" أجل، كان من السهل أن أفعل ذلك، ولكن ضميري لم يسمح لي بأن ألقي بتلاميذي في هوة الجهل التي تحتويني، فلم أرض أن اخدعهم، وتجنبت مواضع الأسئلة التي سوف تأتي إليهم في الامتحانات، وكان أن رسب جميع التلاميذ،

الأمر الذي وصمني بعدم الكفاءة والقدرة على التدريس، فأقصيت من العمل، وهكذا وقعت في مهانة الفقر، فقلت لنفسي: إذا لم يتيسر لي الحصول على المال من طريق شريف، فإني سوف أنهج أى طريق آخر للحصول عليه. "يومق إدوارد بنظرة طويلة شاردة" ألم تذهب يومًا إلى السباق؟ ألم تراهن على جواد ما؟

إدوارد: راهنت أكثر من مرة ولازلت أراهن على "المملكة الفضية".

ريتشارد: "وقد أسبل جفنيه لحظات" راجا هو الأول، المملكة الفضية هو الثاني، الحظ هو الثالث، سوف تخسر كل مراهناتك يا مستر إدوارد، لقد ربحت من وراء المراهنات مالًا طائلًا، ولكني لم أتذوق لذة هذا الربح، لأني كنت أعرف أنني سأربح دائمًا. إن لذة المال ليست في كسبه، وإنما هي في التنقيب عنه والكد من أجله!!

إدوارد: إنك مثالي للغاية، ولم تحاول مطلقًا أن تقنع نفسك بلذة الحصول على هذا المال.

ريتشارد: "مستطردًا" ولما لم أشعر بلذة هذا الربح، فقد عولت على ترك المراهنات، والتحقت بمكتب للتأمين، كنت قادرًا على أن أدلي بآرائي السديدة إلى الشركة، فأشير عليها مثلا بقبول تأمين هذا، لأنه سيعيش طويلًا، وبرفض التأمين على شخص آخر بعينه، لأنه سيموت غدًا.

ولاقت توجيهاتي رواجًا محمودًا، فتبوأت في الشركة مقعد المجد والشهرة، وعينت وكيلًا لها بإحدى المدن الكبيرة، ثم مستشارًا عامًا لجميع شركات التأمين.

إدوارد: لعله عمل طيب ومدر للربح في وقت واحد؟

ريتشارد: لا، بل كان على النقيض، لأنني كنت أدرك خطورة الجرم الذي أقدم عليه، لقد كانت الشركة دائمًا تستحوذ على أكبر قدر من المال والجمهور هو الذي يخسر!!

هل تسول لك نفسك أن تحرم إنسانًا حقه، فتسلب أمواله لتقديمها إلى الشركة، وربما أنت تعرف أن أسرته وأولاده في أمس الحاجة إلى هذا المال؟

إن التأمين الوحيد الذي أراحني، أن أشير على الشركة أن تعقده، وكنت أعرف بالطبع نتيجته مقدمًا، هو التأمين الذي خسرت به الشركة كل أموالها.

ولهذا طردت من عملي.

إدوارد: إنك ذو قلب كبير، وضمير مستيقظ.

ولكن لماذا لم تخض ميدان التجارة أو الصناعة، وفي مقدورك أن تحقق نجاحًا وربحًا، دون أن تؤذي الآخرين؟

ريتشارد: حاولت في المجالين، لكني لم أستمر.

إدوارد: كيف؟ تقصد أنك لم تفلح في تجارتك؟

ريتشارد: كنت موفقًا إلى حد بعيد، فصار لديّ المال الوفير، وأصبحت من الأثرياء.

لكني أفتقدت لذة العرق في سبيل الكسب، وبحثت عن السعادة من وراء المال، فلم أهتد إليها.

إن مجرد كسب المال، ليس كل ما يبتغيه إنسان طموح، يحاول جاهدًا أن يساير ركب البشرية، الذي يتدافع بالمناكب نحو غايات نبيلة وسامية.

إن المنافسة والنضال والرغبة في التفوق والأمل في الربح، هي السعادة الحقيقة لرجل الأعمال. المال يمنح النقود والقوة، ولكن النفوذ والقوة، لم يكونا عمادًا للسعادة، إن الأعمال يجب أن تقترن دائمًا بالمنافسة، إنها مباراة يكسب فيها كل جدير بالكسب!

أما أنا، فقد كانت منافستي خالية من حرارة النضال، لأنني كنت اعرف مقدمًا، أن الظفر لي، فلما يتحقق لي ما أردت، يتجسد أمام عيني، شبح الخداع الذي أتواري خلفه، وعندئذ يفترسني الشعور بالألم!

إدوارد: إن قصتك هذه من النوع الفريد يا مستر ريتشارد، وماذا تصنع الآن؟

ريتشارد: لا شيء غير اطلاعي على الروايات القصصية والأدب، فأنت لا تستطيع أن تتنبأ بحوادث القصة، لأن الخيال بعيد عن عالم الحقيقة، وكذلك كتب التاريخ، فقد مرت حوادثه، وليس من السهل إرجاعها.

إدوارد: ولكن دعني أعرف، لماذا تضيق بالمناقشة؟

ريتشارد: أنظر إلى هذه الأوراق التي أمامك؟

إدوارد: "يتناولها ويقلب صفحاتها في دهشة وحيرة، ثم يقرأ بصوت عال".

أنعرف اسمي؟ أظن أن الدكتور "راودن" تحدث وإياك بشأني، لقد طالعتني إحدى الصحف بمقال، تحدثت فيه عنك باعتبارك الرجل الوحيد المثقف في "لوتون"، أنا لا أفخر بذكائي، ولست أقصد التواضع، فهي أغث من الكبرياء، أتقصد قراءة الأفكار، أذكر

أنني قرأت بعض تجارب لهذا النوع، كيف لم تصبح أغنى رجل في العالم؟ المملكة الفضية، إن قصتك هذه من النوع الفريد.

وماذا تصنع الآن؟ يا إلهي، إنه نفس الحديث، الذي ألقتيه عليك منذ أن دخلت الغرفة.

ريتشارد: لقد كتبت هذا قبل مجيئك هنا "يصمت بعض الوقت".

أنا لا أحب المناقشة، لأني أعرف دائمًا، ما سوف يقوله المرء، الذي سيتحدث إلي.

"يشحب لونه، وتظهر على وجهه بوادر الخوف الفزع، ويتمم".

كم تكون الساعة الآن؟

إدوارد: السادسة إلا أربع دقائق.

"يزداد لون وجهه امتقاعًا، ويلتمع في عينيه شرر مخيف".

يقول إدوارد مضطربًا:

لماذا استبقيتني معك حتى الآن؟

ريتشارد: إن صحتك تتقهقر خطوات إلى الوراء.

إدوارد: أعرف ذلك، وأعرف أني في طريقي إلى الموت!

ريتشارد: أنت دائم القلق على مصير زوجتك وأولادك، إن زوجتك ستتزوج بعد واحد وعشرين شهرًا، أما أولادك، فسيرعاهم إنسان غيرك.

إدوارد: "صارخًا" أرملتي.. أرملتي!! ماذا تقصد بهذا؟!

ريتشارد: ما الوقت الآن؟

إدوارد: السادسة إلا ثلاث دقائق.

ريتشارد: "ينهض متثاقلًا" لقد كنت دائمًا منافسي، وأردت أن أسرد على سمعك قصتي قبل أن أرحل من هذه الدنيا.

"يجلس على المقعد لاهثًا" هل تسمح لي بتلك الوسادة؟

إدوارد: وهو يناوله الوسادة "أمريض أنت يا مستر ريتشارد؟ هل لك في جرعة من النبيذ؟

"يضع في يده كأسا من النبيذ، ولكن ريتشارد لم يقم على ارتشافها".

أمريض أنت؟!

أأدعو لك طبيبًا؟

ريتشارد: "وهو يغالب شفتيه في ألم ممض".

الساعة السادسة.. من اليوم السادس.. من الشهر السادس.. من العام السادس والثلاثين.. هو التاريخ الذي سأجرع فيه كأس الموت!!

أنا.. لا أقدر.. أن أخادع.. في هذا.. الامتحان..!!

أ..أ.. أعني.. أ.. ال.. الموت!

"تسقط الكأس من يده، وتتلاشى الأضواء، ويبدو المسرح في حلة من الظلام، بينما الساعة تدق دقتها السادسة تمامًا".

ليونارد فارنك.

الطفل والسلام

"قصة ألمانية"

كان "روبرت" دائم التفكير في كرامته!

عندما ينحني أمام واحد من نزلاء الفندق، يعلو بداخله صوت سؤال لا يغادره:

– أليست هناك أعمال أخرى، يحظى أصحابها بالكرامة الإنسانية، ولا ينحنون؟!

ثم يطأطئ رأسه، وهو مازال يفكر، وينحني كعادته مسرعًا إلى النزلاء، يشكرهم على ثقتهم به، وعطفهم عليه.

كان "روبرت" طيبًا، خجولًا، يعمل رئيسًا للسقاة في هذا الفندق، كان يصحب العشاق إلى خمائل الحب، ثم يغمض عينيه أبوة، وينصرف.

وكان "روبرت" له طفل وحيد، هو كل أمله في الحياة، استهوته الموسيقى، فأجاد العزف على آلة الكمان، وأغدق عليه أبوه ثروة

كبيرة من لعب الأطفال: مسدات.. سيوف.. جنود من الصفيح.. ورداء ضابط بري.. وثياب بحار.

وعندما بدأت الشعيرات البيضاء تغزو رأس "روبرت" كان لا يزال ينحني أمام النزلاء!!

وكبر الطفل، فألحقه بالمدرسة حتى إذا أتم مرحلته الأولي، ألحقه بالجامعة، فلما بلغ الحادية والعشرين، أستدعته إدارة الجيش، ليشترك في الحرب القائمة، ولقد أبدى مقدرة نادرة، وشجاعة فذة، فأنعم عليه بنيشان الصليب تقديرًا لبسالته.

وكان "روبرت" يحلو له كثيرًا، أن يتحدث عن بسالة ابنه، فلا يفتأ يثرثر مع النزلاء عنه، ويقدم لهم صورًا لطفولته، وهو في ملابس العسكرية.

وفي يوم من صيف عام ١٩٦١ تلقى "روبرت" برقية رسمية، تخطره أن ولده قد "استشهد في ساحة الشرف"، عندئذ أظلمت الدنيا في عينيه، وزلزلته مشاعر الذهول والحيرة!

استشهد في ساحة الشرف!

كانت عيناه تلتهمان هذه العبارة عشرات المرات دون أن يتفوه!

كان يقرؤها، كلما سأله نزيل عن غرفة خالية، وعندما يلبي طلبات الزبائن، وحين يقف أمام مائدة البلياردو، يترقب أوامر اللاعبين!

كان يقرؤها قبل أن يدخل أية غرفة، وبعد أن يغادرها، وفي المطبخ، وأمام البار، وفي دورة المياه، وعلى درجات السلم، وهنا، وهناك!!

استشهد في ساحة الشرف!

الشرف!!

أية كلمة تلك التي دفعت شعبًا بكامله إلى الموت؟!!

ولم تكن "ساحة الشرف" هذه شيئًا، يستطيع "روبرت" أن يلمسها بيديه، أو يتصورها بأعصابه المحطمة!

لم تكن هناك ساحة، ولا هواء، ولا ضباب، ولا شيء بالمرة!!

هناك شيء واحد فقط: هو العدم المطلق!!

ولقد اكتشف "روبرت" فجأة، أن هناك خيوطًا، تربطه بذلك العدم منذ لحظات، فهو يقبع فيه وحده لا يلوى على شيء!!

ومع أن المال أصبح – منذ الآن – شيئًا غير ذي قيمة، فهو لم ينقطع عن العمل.

كان يمد النزلاء بالغرف الفاخرة، متقاضيًا عنها نصف الأجر فقط، فعاقبته إدارة الفندق.

وكان يلتمس شكايات بعض النزلاء من ارتفاع الأسعار، فيقدم لهم الماكولات والمشروبات بثمنها الحقيقي، وهكذا اضطرت إدارة الفندق إلى فصله من العمل!

أصبح "روبرت" يواجه كل يوم غرفة ابنه بكل ما تحوي من مخلفات الطفل، فتتزاحم الذكريات في رأسه المرهق، وهو لائذ بالصمت..

وذات يوم وقعت يده دون قصد على غطار، يضم صورة ولده، وهو في ملابس المشاه، يؤدي التحية العسكرية، فارتج عليه، وندت عن صدره آهه ملتاعة مذبوحة بسكين الحب والألم!

كانت زوجته تهدئ من روعه ببعض عبارات التعزية، التي سمعتها من جارتها مثل "تلك هي إدارة الله"، لكن عينيه الذاهلتين الواجمتين، أيأستاها من المحاولة مرة أخري.

كان "روبرت" يتوجس قلقًا من أن شيئًا ما سوف يحدث، لكنه لن يفقد شيئًا، لأنه في الحقيقة فقد كل شيء!

وعاد إلى الفندق مرة أخرى.

نقل كل لعب ولده من البيت إلى الفندق، أخفاها وراء البيانو، وكان يتعذب بسياط الخطيئة، تجلد ضميره، كلما وقع بصره عليها!

لم تضطرب يده ذات مرة، وهو يقدم كوبًا من الماء إلى أحد الضباط، لكنه أحس بانقباض شديد، يعتصر قلبه ، حين أطل من نافذة الفندق، فأبصر مواكب الشباب، تملأ الشوارع، وهم ينشدون: "لا تضع يدك في يدي لأن بها سلاحي".

لقد لقن ابنه أيضًا مثل هذا النشيد، وكان يرهف السمع إليه مزهوا، وهو يسكبه لحنًا رائعًا في الآذان.

ومضت الأيام، و"روبرت" يمعن الفكر في لا شيء وفي كل شيء، وكان يخرط في البكاء، عندما يشهد فتاة، فقدت حبيبها، أو زوجة ترملت، لكنه كان يحاول جاهدًا، أن يحتفظ بمقدرته على الابتسام، وتناول النبيذ دائمًا!

ازدحمت القاعة الكبري بالنساء.

وناول "روبرت" كوبًا من الماء لرجل، يقف أمام المنصة، كان يتحدث باسم نقابة العمال، وكان يعلن لهذا الحشد الكبير من الزوجات، أن النقابة لن تستطيع أن تدفع لزوجات المتقاعدين شيئًا، فقد نفذت مواردها، والخزينة خاوية.

واستند "روبرت" على البيانو، الذي يخفي وراءه بنادق طفله وسيوفه، راح ينصت للخطيب، ويتفرس وجوه الحاضرات، التجاعيد واضحة على وجوههن، وكان غياب زواجهن في ميادين القتال، والغلاء الباهظ، قد كساهن شحوبًا، ينم عن التعاسة والشقاء. إن القبضة الحديدية العاتية التي أزهقت الآن أنفاس أوروبا خلال عامين، تبدو آثارها الآن واضحة على هؤلاء السبعمائة من الزوجات الرازحات تحت أقدام الهوان، والفقر، والثكل، والترمل.

واكتشف أحد الأطفال بندقية من لعب ابن "روبرت"، فشهرها مرحا في وجوه هؤلاء السبعمائة، فنظرن إلى الطفل فاغرات الأفواه، يتأملن في ذهول البندقية المصنوعة من الصفيح!

وفي الخارج..

كان هناك ملايين من الرجال يتظاهرون، وبيد كل منهم سلاحه!

عندئذ، تحرك "روبرت" في خطى هادئة متزنة.

تناول البندقية من يد الطفل واتجه إلى المنصة.

كان الخطيب يجرع كوبًا من الماء، حين ألقى "روبرت" نظرة طويلة على الجميع، ثم خطب فيهم:

- انظـروا إلـى هـذه البندقيـة، لقـد اشـتريتها لولـدي، ولقنتـه أصـول الرماية، وإصابة الهدف.

وظل يلعب بها، حتى قتل في نفسه عاطفة الحب.

لقد علمته كيف يقتل.

لكنه!

مات في جبهة القتال.

وإنني أشعر بكثير من الارتياح، حين أقول إنني أنا الذي قتلته، وكلكم فعل مثلي، لقد فقدتم أولادكم، كما فقدت ولدي.

ثـم حطـم "روبـرت" البندقيـة علـى ركبتيـه، وألقـى بأشـلائها علـى الأرض وأكمل:

- كان علي أن افعل ذلك منذ خمسة عشر عامًا، هل تعرفون؟

أنتم إذن خونة، مجرمون، إن رجالنا، وهم أبناء وأزواج، يقتلون رجـالًا، هـم أيضًـا أبنـاء وأزواج، وبـدورهم يقتلـون أبناءنـا وأزواجنـا، ثـم تقول واحدة منكن، أو كلكن: ليعد ولدي أو زوجي سالمًا، وليمت من يموت! وهذه أمنيات يطلبها الأنانيون وحدهم، دعوني أسألكم: أليس مجرمًا من يربي طفلًا طاهرًا بريئًا، ليجعل منه فيما بعد قاتلًا فظًا، أو مقتولًا بلا ذنب؟!

نحـن نلقـي تبعـة كـل هـذا علـى الأنانيـة والجشـع. إن أوروبـا تنتحب كلها، لأن الناس فيها، فقدوا عاطفة الأخوة فيما بينهم، لـم يعودوا أحباء، لقد فقدت أوروبا صوابها، لأنها فشلت في أن تغرس بذور الحب في قلوب أبنائها.

أليسـت بـاريس مجنونـة عنـدما يأخـذها الزهـو، لأن ألفـين مـن الجنود، قتلوا أمام خطوطها؟

إننا نـذوب مـن الحزن، حين ينـدثر أبناؤها، وما دمنا لا نشعر بفداحة مقتل رجل منا، فنحن نجهل شيئًا اسمه الحب.

أليس لهذا الإنسان الذي قتل، أب، وأم، وأصدقاء، وإخوة، يتـألمون لمصـرعه، سـواء أكـان فرنسـيًا أو ألمانيًـا؟ يكفيـه أنـه كـائن بشري.

كـان الأحـري بنـا أن ندعـه يتمتـع بالحيـاة، لكننـا قتلنـاه، نعـم قتلناه، لأننا مجرمون!!

كان "روبرت" يشير بيديه، وكانت كلماته واضحة، لكن الناس أحيانًا، يعميهم بريق الحقائق، فيضلون الطريق إلى معرفتها، لقد نسوا الحب ،كما ينسي رجل مهمل مظلته!

وعاد "روبرت" يقول بصوت مرتفع.

– لا شيء سوى الحب، يحول دون إطلاق رصاصة واحدة، فيعم السلام، ونمتلئ بالطمأنينة والمحبة، نحيا متآخين، ونتعاون فوق هذه الأرض التي وهبها الله لنا.

هل تصور أحدكم يومًا، كيف يقتل أبناؤنا؟ يستقر الرصاص في صدورهم، يقامونه، فيصرعهم، ويصبحون جثثًا هامدة.

أنت أيتها الفتاة: هل تخليت يومًا آخر نظرة، ألقاها حبيبك على هذا العالم؟ حبيبك الشاب، وهو يترنح مثخنًا بجراحه، وقد مزقت الأسلاك الشائكة جسده تحت لهيب الشمس؟

وأنت أيتها الزوجة: تستطيعين أن تتخيلي، ذلك المشهد البشع، مشهد زوجك، وهو يتعلق بآخر أمل في الحياة، بينما هو يلفظ أنفاسه الأخيرة!

وأنت أيتها الأم.

صرخت سيدة عجوز: بالله لا تدمي جراحنا.. أسكت.. أسكت، وانخرطت في البكاء.

لكن "روبرت" راح يتكلم:

– إن بلادنا اليوم ممتلئة حتى الحافة بمشوهي الحرب، وبالأطفال اليتامى، والأرامل، لو أننا استعدنا من ميدان القتال، تلك الأذرع

والأرجل، التي انفصلت عن أجسادها، لو أننا أعدنا ملايين الجثث البشرية وفيها جثث قتلانا، ثم ألقيت في عرض الشوارع أمام الأعين.. هل يجرؤ أحد أن يقول: هذه هي الدنيا، أو تلك هي إرداة الله؟ أم كنا نهتف جميعًا بكل ما وعيناه من فداحة المأساة:

لا نريد الحرب.. نريد الحب، ولن نحيا بغيره؟!

وانطلقت من "روبرت" آهه، ملتعاة بالحزن والأسى، وانفجرت القاعة بصرخات النساء والفتيات، وأغمى على إحداهن خارج القاعة.

وجثت شابة صغيرة على ركبتها، تبتهل إلى الله بالدموع..

وأسند شيخ عجوز رأسه بيدية المعروقتين، وراح يبكي!

"قليلون، أولئك الذين يحسون خطاياهم، لكن من هم الذين يستطيعون أن يلمسوا جوهر الحب، آه لو أنكم هتفتم معي: سنناضل بكل طاقتنا حتى لا نعطي الحكم لشيء آخر غير الحب، الحب الإنساني، سنناضل نحن الذين فقدنا كل شيء"!

وارتفعت الهتافات: نعم، لقد خسرنا كل شيء..كل شيء!! وتحرك الجميع يجتازون شوارع المدينة و"روبرت" في مقدمتهم، يرتدي ثياب العمل. ويهتف:

- نريد السلام.

وتعلو الهتافات من حوله:

- نريد السلام.

والفتيات اللاتي فقدن عشاقهن، غادرن المحلات اللاتي تعملن فيها إلى حشود المظاهرين.

راح اثنان من رجال التنظيم ينظمان المظاهرة.

ارتجف سائق الترام لدوي كلمة "السلام" فأوقف مركبته، وانضم إلى الموكب. وفي لحظات، كان عدد المتظاهرين، يتزايد حتى حجب أشعه الشمس، وامتلأ بهم جيمعًا ميدان كبير، حمل أحدهم "روبرت" على كتفيه، وراح يخطب فيهم:

- "إن شجرة خبيثة، لا تؤتي أكلها، يجب أن تجتث من فوق الأرض، وتلقى في النار".

صفق الجميع .

وراحت حسناء تتنهد..

وانتحت أخرى جانبًا، وهي تبكي، وتغمغم: السلام.. السلام..

وتدفقت أفواج المسافرين، الذين كانوا يملأون فناء المحطة، كأنما نسوا وجتهم، ومضوا جميعًا، يهتفون للسلام.

كـان المشـهد مهيبًـا حقًـا، وهـم يسـيرون بخطـى متئـدة، تـدق الأرض، وكأنها تشيع جناز الذل، والكراهية، والعبودية.

ومن بين هذا الموج البشري الهادر، اندفع شاب مكتنز الوجه.

وفي لمح البصـر، استل غدارتـه، وصـوبها إلى رأس "روبرت" فخر مهشم الرأس، والدماء، تنزف منه.

و.. لم يتوقف الموكب.

اندفع يهتف في إصرار أقوى من ذي قبل:

نريد السلام.. نريد السلام!

ستيوارت إمري

الفقر والحب

"قصة إنجليزية"

كـان الطريـق مزدحمًـا بـأفواج العمـال والعـاملات، خـارجين وخارجات من أبواب المصانع. .

وكانت الطبيبة "سارة كولز" على وشك أن غادر عيادتها، حين دخلـت عليهـا "أديـث روهـان" وهـي فتـاة عاملـة، جسـدها هزيـل، ووجهها شاحب، لكنها في خفة العصفور.

قالت للطبيبة بعد أن حيتها:

أرجو أن تقبلي أسفي، لمجيئي إليك في هذا الوقت المتأخر.

جلسـت الطبيبـة علـى مقعـد قريـب، وأجلسـت "أديـث" علـى مقعد مقابل، ثم سألتها:

ألا زلت تحسين آلام في حلقك؟ افتحي فمك كثيرًا، كفى.

وتساءلت الفتاة:

أليس هناك أمل في الشفاء؟

وأوشكت الطبيبة أن تجيب، لكنها أمسكت عن الكلام، وراحت تنظر إليها طويلًا، ثم قالت:

– هل أنت منهكة من كثرة العمل؟

– لا، إنني متعبه فقط.

انتهى الفحص، فجلست الطبيبة إلى مكتبها وقالت:

– هل ترغبين في الحصول على إجازة هذا الصيف؟

– كلا يا سيدتي، فإن راتبي ٢٥ شلنا في الأسبوع فقط.

– وأين تعملين؟

– في حانوت لبيع الكتب القديمة، يديره رجل اسمه "أدامستر".

– أظنه ذلك الحانوت الكائن في الطابق الأرضي من أحد المنازل المتداعية في حي "هوهو".

– كم قضيت في خدمة هذا الرجل؟

– عامين.

– وما الذي جاء بك إلى لندن؟

– جئت مع أبي، كان عمري ١٢ سنة وكان – رحمه الله – عامل تلغراف.

سكتت "أديث" لحظة ثم استطردت.

– وكثيرًا ما كان أبي يعمل في أوقات فراغه، ليطعمنا، كان دائم الإرهاق، لدرجة أن بواب المنزل، كان يجره من مضجعه عنوة، ليوقظه، فلما مات أبي، تركني في لندن، ولم يكن لي مكان آخر اتجه إليه.

– ألا يمكنك أن تمضي ثلاثة أو أربعة شهور خارج مدينة لندن، تشمين خلالها هواءً نقيًا. وتتناولين طعامًا جيدًا، وترتاحين؟

– إنني فقيرة، لا أملك تكاليف هذه الرحلة.

– أتقبلين مساعدتي لك.

– كلا يا سيدتي.. واشكرك.

– هناك أناس أعرفهم لا يترددون في أن يمدوك بكل ما تحتاجين إليه، صاحت الفتاة في إصرار:

– كلا يا سيدتي.. سأتدبر هذا الأمر بنفسي. الفتيات اللاتي في مثل حالتي يتزوجن، سأتزوج.

وعندئذ وجهت لها الطبيبة نظرة ثاقبة وقالت:

– هل وقع اختيار أحد الشبان عليك؟

– نعم.

– وهل تحبيه؟

– لا يا سيدتي، فإنني لم أقف بعد على طباعه وأخلاقه.

قالت الطبيبة:

– ليس هناك سوى شيء واحد في هذا العالم، يجعل حياة الزوجين كلها هناء وسعادة، ذلك الشيء هو: الحب.

– لكني سمعت بعض المتزوجات، يقلن غير ذلك.

– لا تصدقي مثل هذا القبول يا ابنتي، وإني استحلفك يا "أديث" أن تتريثي.

– وما الذي أفعله وأنا مضطرة إلى الزواج كما ترين؟

– لا تغامري بنفسك، لابد أن تحبي فتاك قبل أن تتزوجيه.

– سأحبه، لابد بعد الزواج.

– الزواج الذي لا قيام على الحب.. أشبه بالبيت، يبنى على الرمال.. أقل الأعاصير تهدمه، هذا أسوأ شيء في الحياة.

– آه يا سيدتي لو أنك تعملين في حانوت "أدامستر"، إذن لأدركت أن ذلك أسوأ شيء في الحياة!!

ثم حيت الفتاة الطبيبة.

وانصرفت.

توقفت سيارة أمام عيادة الطبيبة، وهبط منها رجل عاون "أديث" على النزول منها، كانت الطبيبة تطل من نافذة العيادة، ولم تكد تبصر ذلك الرجل، حتى بدت الدهشة على وجهها، وهي تغمغم:

– من؟! أرثر هلمسلي؟!!

وانتاب الطبيبة قلق شديد.

كانت تعرف من يكون آرثر، فهو من أولئك الشبان العابثين، الذين ينفقون أموالهم جزافا، ويعيشون عيشة البذخ والإسراف. وكانت الطبيبة قد تعرفت إليه في منزل إحدى الممثلات التي كانت تعودها.

قالت الطبيبة تخاطب نفسها.

من المحال أن تحبه، ينبغي ألا تفكر في الزواج به.

بعد بضعه أيام، ذهبت الطبيبة إلى مكتبة "أدامستر".

وشد ما كان ضيقها، حين وجدت أنه لا يمكن لإنسان أن يصل إليها، دون أن يهبط عدة درجات تحت الأرض، فضلًا عن رطوبة المكان، والروائح الكريهة المنبعثة من الكتب القديمة!

كانت الطبيبة تعرف أن "أديث" تتغيب في هذا الوقت، حيث تتناول وجبة الغذاء، استقبلها بائع الكتب بأسمالة القذرة، وسألها عن حاجتها، فأجابته، وعندئذ ناولها كتابًا، نسج العنكبوت عليه خيوطه، وأدركت الطبيبة مدى ما تعانيه "أديث" في هذا الجو الخانق، وكيف أن لها العذر في أن تفكر في الزواج، تخلصًا من هذا المكان الموحش، رغم أنه زواج قائم على غير الحب!

وفي المرة الثانية التي ذهبت "أديث" إلى عيادة الطبيبة، بادرتها الطبيبة بالسؤال:

– هل أنت عازمة حقًا على الزواج من آرثر هلمسلي؟

نظرت "أديث" إليها في ذهول.. ثم قالت:

– نعم.

وراحت الطبيبة تفحص الفتاة دون أن تتكلم.

فلما فرغت من الفحص قالت:

إن صوتًا مدويًا، ينبعث من ضميري، ينبغي أن استجيب له، وأنقذك رغمًا عنك.

– لست أفهم مما تقولين شيئًا.

– أخشى يا ابنتي ان أتركك تتزوجين من "آرثر" وبعدها لن أغفر لنفسي هذه الحماقة، لن أطيق وخز ضميري، وإنه ليسعدني أن أتيح لك الفرصة لتدرسي أخلاقه، وتقفي على..

قاطعتها الفتاة قائلة:

– لقد صممت على الزواج منه، ولو كلفني ذلك ما لا أطيق.

قالت الطبيبة:

– مهلا يا ابنتي، لست أطلب منك أكثر من أن تنزلي ضيفة علي طيلة أسبوعين، فيصبح لديك من الوقت ما يمكنك من اصطحابه إلى أى مكان، ولدي بعض الملابس التي ينقصها قليل من الإصلاحات، لتصبح بعدها صالحة لك تمامًا.

امتلأ وجه الفتاة بالخجل، وقالت:

– كلا.. كلا.. لن يحدث هذا ابدًا.

ثم شكرت الطيبة اهتمامها بأمرها.

وغادرت العيادة..

في شهر يونيو.. أخذت الفتاة طريقها إلى منزل الطبيبة، وفي يدها حقيبتها، استقبلتها بالحفاوة والترحيب، وأفردت لها الغرفة المجاورة لغرفة نومها.

قالت الفتاة للطبيبة:

– أشكرك على عطفك واهتمامك بأمر زواجي، ومعاونتي للوقوف على أخلاق "آرثر"، لكن أؤكد لك، أنني سوف أتزوجه في النهاية.

وفي مساء ذلك اليوم لبست "أديث" رداءً حريريًا من ملابس الطبيبة واصطحبت "آرثر" إلى مطعم "سبلندد" لتناول العشاء، ثم ذهبا إلى أحد الملاهي، وظلا هكذا بضع ليال.

حتى كانت أمسية، انتحي فيها "آرثر" بفتاته، ركنا في المطعم، وراح يبوح لها بما يملأ صدره من حب مشبوب، متوسلًا أن تبادله حبا بحب.. وأن ترضي به زوجًا.

وعندئذ صمتت "أديث" كأنها تتمعن الأمر.

ثم قالت:

– غدا، أطلعك على رأيي بعد أن أفكر في هذا الموضوع تفكيرًا جديًا.

في هذا المساء، عادت الطبيبة إلى منزلها قبل منتصف الليل بقليل. كانت غرفة "أديث" موصدة الباب، مطفأة النور، فأومأت برأسها في رأسي.. واتجهت إلى غرفة نومها.

كان القمر بدرًا، تنساب أشعته الفضية عبر نوافذ البيت، فتفيض حجراته بنور إلهي.

وراق للطبيبة أن تتملى جمال الطبيعة في تلك اللحظة، فخطت تجاه إحدى النوافذ، وراحت تطل منها.

شاهدت تحت ضوء القمر ابنه البقال، وصراف الصيدلية، يجمعهما مقعد واحد. الفتى يحوط بذراعه عنق فتاته، بينما يده الأخرى ممسكة بيدها، وصوتها الحالم، ينساب عذبا في أذنيه:

– لشد ما يؤسفني، أننا سنعاني كثيرًا من فقرنا يا حبيبي "بول"!

وفي صوت يذوب هياما وثقه يقول " بول":

– لا تتشاءمي يا حبيبتي، حسبنا أن يمتلك كل منا الآخر، إنها ثروة كبيرة.

قالت الفتاة، وهي تغض بصرها:

- سأكون لك نعم الشريكة، بل سأصبح لك كل شيء.

وراح الفتى، يقبلها في كل وضع من وجهها.

ثم قال في صوت هائم ومحب:

- كم أنت رائعة يا حبيبتي.

قالت الفتاة:

- وإذا أنجبنا طفلًا، فماذا نصنع؟

احتواها الشاب بين ذراعيه، وراح يهزها من كتفيها سعيدًا.

- كم أنا مشتاق إلى أن يكون لنا طفل يا حبيبتي.

تراجعت الطبيبة عن النافذة، وهي تخاطب نفسها.

- آه، لو أتيح لأديث المسكينة أن تفهم؟!

وسمعت الطبيبة دقات سريعة على باباها.. ففتحته. كانت "أديث" هي التي تدق الباب، فجذبتها إلى الداخل، وراحت "أديث" تقول في حزن وأسى:

- هل سمعتيهما؟ لم يكن يدور بذهني أن يكون الحب ممتعًا مثلما سمعت ورأيت!

آه.. إنني لم أكن أعرف!

وأمسكت الطبيبة بيد الفتاة التي آلمها ما شاهدته على وجه الطبيبة من سمات الأسى.. بينما استطردت "أديث" سعيدة لأول مرة:

– سيدتي.. إنني الآن على استعداد لقبول العرض الذي نوهت لي به، إنني سوف أكافح من أجل أن أكون مثل هذين العاشقين، ولست أطلب من حياتي غير أن أحظى بمثل هذا الحب.. العذب .. النبيل..

بي ون

لن اخاف

"قصة صينية"

عبثا ..حاول "لي فانج" أن ينام!

تقلب على جنبيه، وغاص ذهنه في بحر مضطرب بالأفكار، يناقش نفسه، ويتساءل: لكم يعتصرني الجوع إلى الحب! ولكن.. ألست أحب "سونج"؟ إنها فتاة رقيقة وجميلة.. آه لو أني أتزوجها! اعتقد أن السعادة حينئذ، ستحوطني من كل جانب، ولكن لماذا يساورني الشك والقلق في أمر الزواج منها؟ آه زوجتي! زوجتي "لي سيان تشي"! إذن ما الذي يمكن أن أصنعه؟ أطلقها؟ الحل الوحيد هو الطلاق أجل.. سوف أطلق زوجتي!!

وراحت أفكاره المجهدة، تضرب في متاهات من الحيرة والقلق، وتصفع ذهنه تيارات مصطخبة من أسئلة متواترة، حتى لاحت له خيوط الفجر، فاستسلم للنوم، لكنه نوم المضطرب الذي تطارده شتى الخواطر، فيتغلب على مثل الشوك والجمر!

إن "سونج" ذات الربيع الغض، والجديلتين المرسلتين، والخال المبتسم.. كانت زميتله في القسم الذي يعمل به.. وحدث أنه مرض، فتوفرت "سونج" على رعايته، حتى أحس "لي فانج"، أن العلاقة البسيطة التى تربط بينهما كزميلين، قد ارتفت درجة حرارتها، وأصبحت شيئًا فوق حدود الزمالة والصداقة، وأيقن أن ما بذلته "سونج" من عناية، إنما هو تعبير صادق عن حب.. حب حقيقي.

كانت عائلة "لي فاتج" تعيش في قرية بعيدة، على مسافة ست ساعات يقطعها بالقطار، وثلاث ساعات أخرى يقطعها بالأتوبيس.

ونظرًا لمشقة السفر، اتفق مع أسرته على أن يذهب إليهم مرة كل عام، وبالتحديد كانت أسرته تترقب مجيئه في فصل الشتاء، غير أنه بعد أن تسللت إلى قلبه سهام كيوبيد، وتعلقت مشاعره وأفكاره بالفتاة الرقيقة "سونج" قرر أن يؤجل سفره إلى بداية الربيع.

وجاء الربيع...

إنه الآن على مبعدة من القرية، وفي صدره، تنبري تلك الحوافز التي تحشده لمناقشة الموضوع مع زوجته "لي سيان تشي". كيف يمكن أن يعبر الحديث معها إلى هدفه؟ وبأي نبرة يفصح بها عن رغبته؟!

وفـي "يـانج تشـانج" المحطـة الأخيـرة قبـل قريتـه، توقـف الأتوبيس، وراح كثير من الركاب، يهبطون، بينما راحت عيناه تنظران عبر النافذة، لم يكن في حالة، تمكنه من التعرف على أحد معارفه بين جموع القادمين، ووجد أنه من المحتم عليه، أن ينظم تفكيره خلال الدقائق القليلة التالية، لكنه تنبه فجأة على يد صغيرة، تربت على ساقه، وصوت رفيع يغزو أذنيه:

- عمي.. عمي.

واستدار إلى مصدر اليد والصوت، ليرى صبيًا في الربيع الثاني عشر، عندئذ هتف به:

- هالو.. سياباو.. لماذا أنت هنا؟

- جئت من أجل موعد.

- موعد مع من؟

- مع "مؤتمر الصبيات الأوائل في مشروع غرس الاشجار".

واستطرد الصبي منفعلًا:

- هل تعرف أن عمتي هي أولى غارسات الأشجار في حيّنا؟

التفت واحد من الركاب، يرتدي بدلة زرقاء، وراح يسأل الصبي:

–   ومن تكون عمتك هذه؟

أجابه الصبي، وفي نبرات صوته دفء الفخر والزهو والكبرياء:

–   عمتي "لي سيان تشي".

وانبرت للصبي سيدة تحمل طفلا على كتفيها :

–   آه.. لي سيان تشي! أليست هي "النائبة" عن النساء في قرية "شانتسون" وضواحيها؟

ثم تحولت إلى "لي فانج" وركزت نظرتها عليه، كأنما تريد أن تقول له:

–   وأنت ألست زوج "لي سيان تشي"؟

وعندما ناداه الصبي مرة أخرى "يا عميّ" تركزت نظرات الركاب كلها على "لي فانج" والرغبة العارمة، تدفعهم إلى المناقشة مرة أخرى.

لكنه تجاهل هذه النظرات، لم يكن مستعدًا للحديث، بل لقد كان يقتصد في كلماته مع ابن أخيه الذي لم يره منذ عام. كان مشدودًا إلى التفكير في مسائل، ينبغي التفكير فيها بعناية، وبسرعة أيضًا!

- "لي سيان تشي" نائبة القرية، والفائزة الأولي في مشروع غرس الأشجار!! حسنا!"

وأحس أن هذه الأشياء، تضيف إلى ذهنه المثقل المتعب، أشياء كثيرة.

كان الصبي "سياباو" مازال يتكلم.

ووجد "لي فانج" نفسه مضطرًا، لأن يطفو فوق سطح تفكيره، ليجامل الصبي بالحديث.. أي حديث فسأله:

- كيف حال أمك ؟

ثم استطرد، وكانه لا يجد ما يقوله:

- وأبوك؟ ألا يزال يعود إلى البيت متأخرًا؟

- أمي طيبة.. بخير.

وامتد أصبع الصبي عبر نافذة الأتوبيس، وارتفع صوته في حدة أكثر من ذي قبل:

- أنظر يا عمي، هذه المصانع التي أقمناها هذا العام، وهؤلاء الرجال.. إنهم يحفرون بئرًا كبيرًا. هل تعلم أننا نريد أن نقيم عدة سواقي، نروي بها الأرض بطريقة دائمة؟ سندير هذه السواقي

بالكهرباء، وهذه الاشجار. انظر.. لقد غرسناها في العام الماضي فقط، لكنها نمت واخضرت هكذا كما ترى وسط غابة صغيرة.

واستمر الصبي في حديثه، حتى وصل الأتوبيس إلى "شانتسون" فأشار قائلًا:

– وهذا الكوبري الضخم، لقد أقمناه منذ عهد قريب.

وقبل يغادر الصبي عربة الأتوبيس، نظر إلى عمه "لي فانج" في هدوء قائلًا:

– غدا، سوف أصحبك إلى المباني الجديدة، لكي أريها لك والآن، سآخذ طريقي إلى المدرسة، إلى اللقاء يا عمي، لا تنسى أن توصل قبلاتي إلى جدتي.

حين وصل "لي فانج" إلى بيته ذي الغرف الثلاث النائمة في حضن الأشجار الكثيفة، ألقى عليه نظرة مشتاقة، وهو يهمهم لنفسه:

– من العسير أن ينسي الإنسان وطنه القديم.

وتأمل البيت مرة أخرى، وهو يعانقه بقلبه:

– آه.. يا بيتنا المحبوب!

لم يكن "لي فانج" قد رأى منزل الأسرة منذ عام، ولا يدري لماذا بدا له المنزل كئيبًا حزينًا، حتى الأشجار التي تظلله، هي

الأخرى باهتة الخضرة في عينيه، ولا يدري أيضًا، لماذا تمثل له البيت صغيرًا عما كان عليه من قبل! فلما اقترب من المنزل، شاهد سياجا من الأشجار الصغيرة، يحوط به، وقد استحدثت به بوابة ضيقة، دفعها بيديه، فلم تنفرج، وحينئذ اضطر إلى النداء بصوت عال:

- سيان تشي.. سيان تشي.

ومن الداخل، انساب إلى أذنيه، صوت أمه التي هرعت إلى الباب، فتحته، وألقت بنفسها على صدره في عناق طويل حار، ثم تناولت يده ودخلا.

قالت له أمه، وهو ينظر في دهشة إلى أبواب الغرف الثلاث:

- لقد كتبنا لك خطابًا، نخبرك فيه ببناء المنزل الجديد.. ألم يصلك؟

وقبل أن يجيب.. استطردت:

أما المنزل الصغير الذي زوجناك فيه، فقد جعلناه حظيرة للخراف الثلاثة التي نملكها.

وأحضرت أمه حوضًا به ماء، ليغتسل منه، ثم راحت تدور حوله طروبة، وهي تساله عما إذا كانت لديه رغبة في تناول الطعام..أم لا.

وراح "لي فانج" يسرد على أمه، قصة غامضة مبهمة عن خطاب، وصله خلال أيام مرضه.. قائلًا إن الخطاب، قد ورد به موضوع المنزل الجديد، وبطريقة مضحكة – فيها صعوبة وجهد – أجهش كل عواطفه وحبه لهذا المنزل الجديد، إذ اعتبره إنجازًا هامًا، لحلم كان صعب التحقيق، فقد كان هو وأسرته الفقيرة، لا يملكون شبرًا واحدًا من الأرض، وها هم اليوم يجدون الفرصة لبناء منزل جديد خلال خمس سنوات، منذ أن قامت الثورة.

وأفاق "لي فانج" من تأملاته، ليقول:

يكاد هذا المنزل الجديد، يشعرني أنني في حلم!

ولكن.. قولي لي يا أمي: أين سيان تشي؟

انتظرت أمه لحظة، انتهي خلالها من غسل وجهه، واستدارت نحوه قائلة:

لقد ذهبت إلى المؤتمر.

وجلست أمه بجواره، وقربت شفتها من أذنه لتهمس:

لو لم تات اليوم يا بني.. لما استطاعت أمك أن تعرف ماذا تصنع!

أجابها "لب فانج" منزعجًا!

لماذا يا أمي؟ هل حدث شيء من سيان تشي؟!

إن أمك تغض بصرها عن أشياء كثيرة.. ومع ذلك فهي تخرج مع أول خيط من نور الصباح.. ولا تعود إلَّا قبيل الظهرة، أكون قد انتهيت من إعداد الغذاء، وقبل أن تنتهي من طعامها تقول لي"أنا ذاهبة يا أمي إلى الاجتماع". وأحيانًا كثيرة، لا تعود من الاجتماع قبل أن يصيح الديك وقت الفجر، ولك يا بني أن تتخيل مد قلقي عليها إنها لا تزال شابة، وبيتنا بعيد جدًا عن الطريق!!

وعندما حاول "لي فانج" أن يشرح لأمه هذه الأشياء، لم تعطه الفرصة، وراحت تكمل:

لكن هذه الأشياء ليست ذات أهمية، أول أمس.. أمطرت السماء.. فاضطرت "سيان تشي" أن تبقى في البيت. أتعرف ماذا حدث يومها؟ راحت تعزيني بشتى الوسائل قائلة لي:

يجب أن تنضمي للنقابة يا أمي؟

يومها يا بني أحسست بالبرودة تسري في قلبي، وقلت لها متسائلة:

وأيه ميزة في أن أنضم للنقابة؟

فأجابت:

أوه.. ميزات كثيرة يا أمي.

ثم أخذت تعددت لي هذه اليمزات واحدة بعد الأخرى، فقلت لها على الفور:

إذن، ليس لدي مانع من الانضمام للنقابة.

وتناول "لي فانج" يد أمه، محلقا في عينيها بفضول وشغف.. قائلًا:

والآن يا أماه.. عليك أن تصغي لي جيدًا.

وراح يستغل كل مقوامته ومواهبه وذكائه.

شارحًا لها بإخلاص وعقيدة، العوامل الهامة لأهمية الانضمام للنقابة، مدللًا على كلامه بمقارنات وإشارات وأمثلة كان كل هدفه إقناع أمه، قد كان هو نفسه واحدًا من العمال الإجراء.

ولم تجادله أمه في الموضوعات.. لا لأنه استطاع إقناعها فحسب.. وإنما لأنه ابنها الحبيب.

صمت حتى انتهي من كلامه، ثم قالت له:

والآن.. سأذهب لأحضر لك "طبق حلو" يجب أن تتناول طعامك الآن.. أما "سيان تشي" فقد أوشكت أن تعود حالًا.

وكان "لي فانج" قد أحس بالتعب، فأخذ طريقه إلى غرفة النوم.

على الرغم من أن المنزل كان جديدًا.. إلا أن كل شيء في حجراته كان مألوفًا لديه، الناموسية "اللَّبني" المدلاة فوق السرير، الملاءة البيضاء الناصعة، الوسادتان النظيفتان المكتوب على غطائهما. "تستطيع الزهور أن تتفتح والقمر أن يكتمل" كل الغرف تبدو في زينتها، مثلما كانت عليه ليلة زفافه، ما عدا صورته المعلقة على الحائط، والتي علقت حديثًا. كانت الصورة ملصقة على ورقة حمراء مربعة معلقة في ركن الغرفة، وقد أحاط بها إطار من الورق المذهب، وحولها ستائر حمراء محلاة برسوم على شكل مقصَّات صغيرة الحجم، مدلاة على صدر النافذة، كانت "سيان تشي" تهيم إعجابًا بمنظر المقصَّات.. ولابد أن كل شيء في الغرفة، صنعته بيديها خلال السنة الماضية، وبدا له كل شيء في الغرفة رائعًا وجميلًا تمامًا مثل زوجته، وبلا وعي، انتزع نفسه من السرير جالسًا، فقه أحس شعورًا بالراحة والهدوء.. نوع راحة وهدوء، يستشعرهما مسافر بعيد عن بيته وأسرته، عاد إليها أخيرًا.

وعندما تسلل إلى إذنيه صوت "سيان تشي" من الخارج، نهض واقفًا، وكأنما كان في حلم.

دخلت "سيان تشي" فذهلت نظراتها عليه.

جرت نحو صدره، ففتح لها ذراعيه، واحتواها، ثم انساب صوتها متهدجًا، كما لو كانت طفلة تبكي على صدر أمها:

وأخيرًا عدت يا زوجي الحبيب!!

في هذه اللحظة تناولها من يديها، وأجلسها بجواره على السرير، هامسًا في أذنيها:

– سيان تشي.. لماذا تبكين؟!

وصمت لحظة، راح خلالها يتأمل وجهها البرئ كالطفولة، عينيها المفعمتين بالثقة، قميصها القطني، أصابعها الناعمة. ومن خلال تأملاته، قفز إلى رأسه هدفه من المجئ إلى المنزل، والقرار الذي اتخذه بشأن الحديث معها في أمر الطلاق، لكن شعورًا لا يمكن وصفه، تغلب عليه!

وأمام صورة زوجته.. وجمالها.. وشبابها.. وشغفها به.. وحبها له.. تبخرت كل قراراته!!

كيف بلغ به الحمق حدًا، جعله يعتقد أن حبه لـ"سونج" أكبر وأضخم من حبه لزوجته؟

ومع المقارنة الذهنية، لم يستطع أن يوقف الدموع الغزيرة التي ترقرقت في عينيه، وامتدت يداه إلى يدى زوجته، جذبها نحو هامسًا:

– هل كنت تفكرين حقًا في عودتي؟

– نعم، وكنت أعرف أنك ستأتي خلال بضعة أيام!

– كيف؟!

– رأيت في المنام أنك آت إلينا، أرجوك لا تضحك.

وحاول "لي فانج" أن يكبح جماح عواطفه، حين نظرت إليه "سيان تشي"، وتأملت عينيه قائلة:

– فيم تفكر؟ لابد أنك تضحك مني في قرارة نفسك!

– أبدا.. ولماذا أضحك منك؟

– حسنا.. إذن فأنت تضحك من رداءة الخطاب التي بعثت به إليك؟!

شرد لحظة، قبل أن يسألها:

– وهل بعثت لي خطابًا؟

وضحكت "سيان تشي" ضحكة ملؤها السعادة، والحب، والدلال، وهي تقول:

ألم يكن حضورك استجابه لرغبتي في الخطاب التي أرسلته إليك؟ أم أنك جئت بدافع الحنين، بعد أن غبت عني فترة طويلة؟ تصور أن الناس هنا متألمون من غيبتك الطويلة عني؟ لقد ظنوا أنك

ستبقى هناك فترة أطول! من يدري، ربما أصبحت في غنى عني، أو ربما تريد أن تسلمني للقدر الذي تعرضت له عمتك. لكم كنت خائفة يا "لي فانج"!

– وماذا حدث لعمتي؟

– طلقها زوجها، حاول الجميع عبثًا أن يصلحوا بينهما! هل من الصواب أن يطلقِّ الرجل زوجة، كانت تشاركه حياته الشاقة، وكفاحه المرير؟!

وعند المقطع الأخير من حديثها، أحست أن في نبرات صوتها تعبيرًا عن كل مشاكل الزوجات في الحي الذي تنبوب عنه، ثم رمست على شفتيها ظلال ابتسامة رقيقة، وراحت تغير من مجرى الحديث قائلة:

– لا داعي للحديث في أشياء غير سارَّة، خصوصًا وأنت في اليوم الأول من مجيئك، أعرف أنك طيب، ولست من ذلك النوع من الرجال.

وراح كل منهما، ينفرش وجه الآخر في شوق.

كانت أشعة الشمس الغاربة، ترسل خيوطها الذهبية على الفناء الصغير، بينما "سيان تشي"و "ولي فانج" يرتشفان كوبين من الشاي، حين سألها قائلًا:

وماذا عن الاجتماع الذي شاركت فيه اليوم؟

اجتماع نقابة العمال الزراعيين، تصور أن ثمانين في المائة من سكان الحي، انضموا إلى النقابة. لكم كنت خائفة! وهذا هو السبب الذي من أجله، كتبت إليك، يجب ألا نتخلف عن الأخرين، وأنت تعرف ذلك جيدًا.

– قلت لماذا كتبت إلي؟

– لماذا!

وامتدت على وجهها ظلال من الوجوم، قائلة في عتاب:

– لي فانج!

ثم بدأت تهدأ، قفزت إلى جوار زوجها، واستطردت:

– إنك لا شك تعرف الأشياء أكثر مني. هل نأخذ موقفًا من الانضمام للنقابة؟ هل نأخذ؟

وركزت عينيها في عينيه.

ولم يستطع "لي فانج" أن يخنق الابتسامة التي أخذت طريقها إلى شفتيه، وهو يسأل

– ما رأيك أنت؟ على أية حال، إذا أخذت موقفًا من النقابة، فلا أقل من أن نشجع للانضمام إليها.

وجذبته "سان تشي" من سترته، وهي تقول:

- إذن فأنت – بالتأكيد – تشعر بضرورة الانضمام إلى النقابة.

وتساقطت على خديها دموع الفرح وهي تستطرد:

- هذا شيء رائع، لقد كسبت المعركة بموافقتك.

ابتسم "لي فانج" مرة أخرى، وهو يقول لها:

- وأيه أهمية في ذلك؟ بالنسبة لك على الأقل؟

ثم جذبها من كتفها وأجلسها بجواره قائلًا:

إنك تمثلين كالأطفال!

كانت عيناها قد اغرورقتا بالدموع، حين تناهى إلى أذنيها، صوت من خارج المنزل آتيا من وراء السياج الأخضر، مناديًا:

- لي سيان تشي.. لي سيان تشي.

عندئذ، اتسعت حدقتا عينيها في دهشة، وهُرعت إلى الخارج مسرعة.

وشاهد "لي فانج" ديكًا كبيرًا، يفرد جناحيه عبر البوابة المفتوحة، فنهض ليهشه بعيدًا.. غير أن الديك، راق له أن يحاوره.

فكلما هشه بعيدًا، عاد إليه!

في هذه اللحظة، شاهد واحدًا من الرجال، يدخل البوابة متجهًا إليه.

– أوه .. لي فانج!! متى عدت؟

– هالو.. تاهاي.. عزيزي.

كان الاثنان صديقين منذ الطفولة، وعملا معًا كأجيرين في أراضي الإقطاعيين في الماضي.

استقبله "لي فانج" استقبالًا حارًا، ودخل به حجرة الجلوس، وعلى شفتيهما بوادر حديث طويل.

قال تاهاي:

– لقد جئت الآن لأتحدث مع "سيان تشي" في موضوع النقابة. كنا قد كتبنا للنقابة طالبين وعدا بانضمامنا إليها. أريد أن أسالها عما تم في أمر عضويتنا.

قل لي ياتاهاي، لماذا أنت مصمم على الانضمام للنقابة ؟

عندئذ، حملق فيه "تاهاي" بدهشة، لكنه سرعان ما انفجر ضاحكًا، وهو يقول:

– لماذا؟! يا أخي العزيز، لا شك أنك تداعبني بهذا السؤال، أليس كذلك؟ عمومًا تفترض أنك الآن عائد لتقوم بزراعة أرضك، هل

يرضيك أن تكد وتكدح، ويتصبب عرقك سُدى، كأي أجير يشتغل والسوط فوق ظهره؟ هل أنت قانع بذلك المحصول الضئيل الذي تنتجه الأرض؟ وهل أنت راضٍ بهذا الكبت، الذي يحرمك من حرية المناقشة في أمور الزراعة، والسياسة، وتنمية المحاصيل، ومحاولة الفهم والدراسة؟ أي نوعٍ من الحياة هذه؟ على العموم، تأمل موقف المصانع هذه الأيام، ومن خلالها تعرف كل شيء.

ومن الخارج، جاءهما صوت الأم، يصيح في انفعال حاد:

– أوه.. لماذا لا تظل البوابة مغلقة؟ إن ديوك الجيران، قد دخلت، والتقطت كل ما على الأرض.

ثم راحت تهش الديوك، في الوقت الذي تأهب فيه "تاهاي" إلى النهوض مشيرًا بيديه إلى "لي فانج" استعدادا للرحيل، لكنه قبل أن يصل إلى باب الحجرة، همس قائلًا:

إن أمك لا تتحدث معي فترات طويلة هذه الأيام، وذلك بسبب الانشغال بالنقابة، لكن "سيان تشي" إنسانة رائعة، إنها تسلك كل الطرق، لإشراك جميع أبناء الحي في النقابة، يالها من شخصية جريئة، رغم أن الذين يعرفونك، يعتقدون أنك أنت الذي تمدها بكل هذه الشجاعة.

وكان لي فانج، قد نهض هو الآخر.. ليودعه.

ليس هناك مكان أجمل من بيت الإنسان!

أى طعام لذيذ، يمكن أن يتناوله مسافر عائد لتوه من رحلة طويلة. إن الشاي الخفيف، والطبيخ البيتي، هما أحسن شيء في هذا الوجود!

وراح "لي فانج" يقضم قطعة من السمك قائلًا:

– هل من الممكن أيضًا، أن يشتري الإنسان سمكًا طازجًا بعد الظهر؟

ردت عليه أمه، وهي خارجه من عشة الدجاج:

– "تانج يايانج" هو الذي اصطاد لك هذه السمكة.

وهتفت "سيان تشي" قائلة في إعجاب:

تصوري يا أمي، أن طعمها حلو مثل السكر تمامًا.. ألا تشاركينا يا أمي هذا الغذاء اللذيذ؟

وبينما هما يأكلان، قالت "سيان تشي" لزوجها:

لقد أصيب "تاج يايانج" في إحدى ساقيه، ولم يتمكن من القيام بأعماله الكثيرة في الحقل، وظن أنه لن يستطيع الانضمام إلى

النقابة، لقد كان متألمًا لهذا الحرمان، لكنني تكلمت بشأنه مع "تاهاي" على أساس أنه يستطيع القيام بأعمال كتابية للنقابة، حتى إذا شفيت ساقه، تمكن من القيام بالأعمال الزراعية، لقد كان الصوت الذي نادى منذ قليل صوت زوجته، جاءت تبحث عنه، فلما قلت لها أن النقابة، قد قبلت عضويتهما، أحسست أن السماء قد أغدقت عليهما بالبسمات والفرح، ورأيت دلائل البهجة ترفرف عليهما.

أخيرًا..

عاد "لي فانج" و"سيان تشي" إلى حجرتهما، ونظرت "سيان" إلى ركن الغرفة، قائلة في شيء من الضيق:

– أوه.. إن مصباح الجاز غير مضاء.

فرد عليها "لي فانج" في ود وحنان وحب:

– لسنا في حاجة إلى الضوء.

لحظة واحدة يا "فانج".

وشاع في جوف الغرفة ضوء أحمر، انعكس على وجه "سيان تشي" فبدا جذابًا رائعًا، وابتسمت شفتاها في همس جنون:

– ألا تشبه هذه الليلة ليلة عيد رأس السنة؟

- بل هي تشبه ليلة زفافنا.

- أوه.. أنا مكسوفة.

وضمها إلى صدره هامسًا.

- إنني أعني ما أقول.

الليلة تشبه ليلة زفافنا بالضبط وحقيقة أخرى اكتشفتها الليلة، ذلك أن حبي الوحيد الحقيقي هو أنت يا "سيان تشي" وعليك بعد الليلة، ألا تخافي من أي شيء مطلقًا.

فردت عليه، وهي تلوذ بصدره:

- أبدًا.. لن أخاف بعد اليوم.

أنطون تشكيوف.

عاشق من مونت كارلو

"قصة روسية"

قال الدكتور نيكولاي يجرافتيش، في عصبية:

– ما هذه الفوضى؟! أما نهيتك مرارًا عن العبث بالأوراق التي تكون على مكتبي؟ كانت هنا برقية، أين أختفت؟ ابحثي عنها حالًا. إنها من "قازان"، وتاريخها أمس.

وراحت الخادمة – وهي فتاة نجيلة، شاحبة، ذات وجه بليد التعبير – تدير بصرها في مساحة الغرفة، حتى عثرت في السلة الموضوعة بجوار المكتب على بضعة برقيات، دفعت بها إلى الدكتور نيكولاي دون كلمة، لكن الدكتور اكتشف أن هذه البرقيات جميعها من مرضى، فراح كل منهما – الدكتور والخادمة – يبحثان من جديد في غرفة الاستقبال، ثم في غرفة أو لجا ديمتريفنا.

كان عقربا الساعة، يشيران إلى منتصف الليل. وكان الدكتور نيكولاي، يدرك تمامًا، أن زوجته لن تعود الآن، بل لن تعود قبل الخامسة صباحًا. وبالرغم من أنه لم يكن يثق بها، إلا أنه لن ينام

قبل أن تعود. كان يبغضها، ويزدريها. وأشد ما كان يؤلمه، ويشعل في صدره البغض والكراهية لها رؤيته لتلك الأمتعة، وصناديق الحلوى المتناثرة هنا وهنالك، وباقات الزهور، التي تصلها من أشخاص لا يعرفهم.

إنه في مثل هذه الأمسيات، يضيق ذرعا بنفسه، ويعاني من الإرهاق، ويقع فريسة للشكوك والأوهام.

إن رغبة ملحة، تستلوي عليه هذه الليلة في أن يعثر على البرقية التي بعث بها أخوة إليه. رغم أنها لا تتضمن شيئًا غير التهنئة بالعيد.

وبينما هو مشغول بالبحث عن البرقية، وقعت عيناه على "تلغراف"، ألقى عليه نظرة خاطفة، فعرف أنه مرسل إلى "زوجته" من "مونتكارلو"، وموقع بإمضاء: متشل!

وحاول الدكتور أن يفك رموز التلغراف، دون جدوى، كان مكتوبًا بلغة، يجهلها، وأغلب الظن أنها اللغه الإنجليزية! وهكذا وجد نفسه أمام سيل من الأسئلة المتزاحمة: من ياترى يكون متشل هذا؟

ولماذا أرسل من مونت كارلو؟!

وعاد إلى غرفة مكتبه وسط عاصفة من الانفعالات، أعادته إلى ذكريات عام ونصف عام.

ذات يوم، راق له أن يصحطب زوجته إلى بطرسبورج، وهناك تناولا طعام الغذاء مع صديق قديم، وتصادف أن هذا الصديق، قدم له ولزوجته شابًا في نحو الثانية أو الثالثة والعشرين اسمه متشل إيفانوفتش، وعقب ذلك بشهرين، فوجئ الدكتور بصورة الشاب في "ألبوم" زوجته، وفي أسفل الصورة عبارة تقول:"إذا افتقدت الحاضر بذاكره، والمستقبل بأمله.. فانشديهما هنا"

ثم التقى فيما بعد بذلك الشاب، كان ذلك في الوقت الذي كانت زوجته منصرفة فيه إلى حياتها اللاهية، غير عابئة بشيءون البيت، الذي لا تعود إليه قبل الرابعه أو الخامسة صباحًا!

وكانت زوجته، تلح عليه دائمًا، لكي تحصل على جواز سفر إلى الخارج، لكنه لم يحقق لها تلك الرغبة، الأمر الذي كان يشير شجارًا عنيفًا بينهما دائمًا.

ومنذ نصف عام على وجه التحديد.. لاحظ أصدقاؤه أن صحته تتدهور، وأنه من الضروري أن يسافر إلى "القرم"، لكي يستشفى هناك. فلما عرفت زوجته ذلك، فزعت واستشعرت القلق على صحة زوجها، وراحت تؤكد له أن جو "القرم" تسوده رطوبة

دائمة، وإذا كان لابد له من السفر، فمن الأفضل أن يذهب إلى "نيس" حيث ترافقه، وتسهر على العناية به.

لقد أدرك الآن سر تلك اللهفة، التي كانت تدعوه بها للذهاب إلى "نيس".. إن متشل العزيز يقيم هناك.. في مونت كارلو!!

تناول الدكتور قاموسًا للغة الإنجليزية، استطاع به أن يقرأ عبارات التلغراف المبهمة. كانت سطوره تقول: "إنني أرتشف في ظمأ نخب عشيقتي الفاتنة، وأقبل قدميها الصغيرتين آلاف المرات، وأترقب قدومها على آخر من الجمر".

كانت عيناه تصطدمان بالحروف، يتصور أى مهزلة كانت ستقع لو أنه استجاب إلى إلحاح زوجته عليه بالسفر إلى "نيس" لقد امتلأ صدره بمشاعر الانقباض، وها هو ذا يستسلم إلى البكاء في صمت حزين، ثم ينهض متثاقلًا، يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، يضرب كفا بكف، وهو في دهشة من أنه – وهو ابن قسيس القرية، الذي تلقى بالمدرسة علومه الدينية، ونشأ على الاستقامة والمحافظة – كيف يترك العنان لزوجته هكذا؟!

راح مرة أخرى، يجتر عبارات التلغراف: "قدميك الصغيرتين"، بينما تجسدت له ذكريات سبع سنوات، حين وقع في غرام هذه المرأة، وأعلن خطبتها.

إن كل ما يتجسد له الآن من وراء تلك السنين، التي عاشها معها، هو جدائل شعرها الفاحم المسترسل، متناثرًا على وجهها في ثورة ما كان أحبها إلى نفسه، وقدماها الصغيرتان، وكانتا حقًا صغيرتين جدًا. إنه يكاد أن يحس رائحة العطر، يفوح من شعرها، وكأن شذاه، يعربد الآن في خياشيمه!

إن عشرات المشاحنات التي كثيرًا ما نشبت بينهما، كانت تتبخر أمام حرارة حبه لها. كان ينسى كل ما يصدر عنها من تهديدات. وكل ما يذكرة أيضًا، أنه أنفق أزهى وأجمل سنوات عمره على مذبح، تهاونها. لقد شحبت آماله، وتدهورت صحته، وأصبح يعيش في جو مسموم بالمنغصات. إن العشرة آلاف روبية التي يحصل عليها كل عام، لا يكاد أن يجد منها عشر روبيات، يبعث بها إلى أمه العجوز في القرية النائية، بل إن ديونه، تجاوزت الخمس عشرة ألف روبية!

كان يردد كثيرًا، فيما بينه وبين نفسه:

لو أن عصابة من اللصوص، كانت تلازمني في حياتي، ما كنت بلغت هذا الحد من الإفلاس، الذي دفعت بي إليه هذه المرأه!!

وراحت أنفاسه، تختلج، وهي تنبعث من رؤيته مصحوبة بسعال حاد، وحين شارفت الساعة على الخامسة صباحًا، كانت قواه قد

خارت، وتهالك على المقعد منهوكًا، وهو يقاوم شيئًا، يحاول أن ينب من أعماقه، وخيل إليه أن ما أصابه من تعاسة، إنما يرجع السبب إليه وحده، فلا يلومنَّ غير نفسه!

لو أنه لم يتزوجها..

لو أنه تركها تتزوج رجلا آخر ذا بأس وشكيمة..

من يدري؟

لعلها كانت تبدو أحسن حالًا مما هي عليه الآن!!

حقا إنه رجل شقي ضعيف، ليس لديه من التجارب ما يؤهله، لأن يقتحم قلب امرأة، ويستأثر به، إنه رجل عبارات.. ودعوات!

وبينما هو كذلك.. تلقفت أذناه شيئًا كالهمس:

"إنك لن تحيا أكثر من هذا.

أنت رجل محكوم عليه بالموت.

يجدر بك ألا تعترض الراغبين في الحياة.

ومن البلاهة، أن تصر على أن تعطي لك حقًا يجب أن تناله.

تحكَّم في عواطفك، تستطيع أن تعطي تلك المرأة حياة حرة، تعيشها مع من تحب"!

كان مطرقًا إلى الأرض، ينصت إلى هذا الهمس في سكون، حين تناهى إليه صوت خطوات قادمة من الخارج.

لقد عادت أو لجأ ديمتريفنا أخيرًا، دخلت غرفة المكتب، ألقت بجسدها المتناسق على أحد المقاعد، قالت، وهي تعاني آثار الإرهاق:

يا لهذا الشاب المترهل. إنه حقًا خائن وقذر.

يجب أن نمقته. لا، ليس في استطاعتي أن أتحمل هذا.

إنبري الدكتور نيكولاي يسألها:

– ماذا حدث؟

– ذلك الطالب "أذار بيكوف" دعوته ليوصلني إلى المنزل، فأضاع حافظة نقوي وبها خمس عشرة روبية، افترضتها من أمي.

كانت تتكلم بصوت مرتفع، والغضب ينهر من عينيها دموعًا، حولت منديلها إلى خرقة مبللة حتى قفازها!

قال الدكتور:

– الأمر ليس من الأهمية، بحيث تعانين هكذا، اهدئي واخفضي من صوتك، فإن لدي أمرًا أهم، يجب أن أفضي به إليك.

- وهل أن مليونيرة حتى أتهاون في نقودي إلى هذا الحد، لقد وعدني بإعادة النقود، لكني لا أصدق وعده، إنه فقير.

- لا أريدك أنت تهتمي بهذا الأمر، غدًا سيكون بين يديك خمس وعشرون روبية، إذا أسكت لسانك، وأوقفت هذا السيل من الغضب.

- إذن أخلع ملابسي. فهي تضايقني أثناء الحديث في أمور خطيرة، خاصة وأنا مرتدية هذا المعطف الثقيل.

ومرت لحظات، عادت بعدها، كانت قد غيرت ملابسها، ونثرت البودرة على وجهها، وإن كانت آثار الدموع ما تزال في عينيها، جلست في مواجهته، وقد سقط على وجهها شعاع من الضوء، زاد من تألقه.

وغرق الدكتور نيكولاي في ذكرياته القديمة، فلم يعد يرى في زوجته غير شعرها الفاحم المسترسل في ثورة ما كان أحبها إليه.. وغير قدميها الصغيرتين.

- سألته والمقعد يهتز من تحتها، كمن أصابته حمى:

- بماذا تريد أن تفضي إلي؟

- لقد عثرت على هذا.

– وأما برأسه إلى "التلغراف"، ثم ناوله إياها.

وبعد أن قرأته، هزت رأسها، ثم قالت:

– ليس في هذا ما يثير فضولك يا عزيزي. إنه تهنئة برأس السنة.

– أحب أن أقول لك يا أولجا، أن هناك على مكتبي قاموسًا للغة الإنجليزية، فسر لي ما يحويه هذا "التلغراف". إنه من متشل، وهو يرتشف في ظمأ نخب عشيقته الفاتنة، ويقبل قدميها الصغيرتين آلاف المرات.

– ولكن.. دعينا من هذا، فهو لا يضيرني كثيرًا، وهذه ليست أولى خطاياك، كل ما أريده الآن، هو أن أضع حدًا لهذه المهزلة.

تستطيعين أن تكوني كما تريدين، فأنك ستصبحين حرة طليقة.

– ساد المكان صمت مباغت، قطعته أولجا بالبكاء والنحيب.

بينما استطرد الدكتور نيكولاي، وهو يقاوم مرارة الكبرياء المهزوم:

– إنني أريد أن أحررك من قيودي، إذا كنت تريدين حب هذا الشاب، فأحبيه، وإذا كنت ترغين أن تسافري إليه حيث يقيم، فافعلي. إنك امرأة ذات أنوثة فائرة، أما أنا فرجل معتل، الموت أقرب ما يكون إلي، واعتقد أنك لا تجهليني ما أقصد.

ومات الكلام على شفتي نيكولاي، فلم يستطيع أن يزيد شيئًا.

أما أولجا، فقد راحت تحكي في صوت الخاطئة قصة إثمها.

أفهمته أنها تكن لمتشل حبًا وتقديرًا عظيمين، وأنهما كثيرًا ما صحبته إلى نزهات خارج المدينة، وأنها تنوي السفر إلى حيث يقيم، ثم أضافت:

– وهكذا لم أخف عنك الحقيقة كما ترى.

والآن.. أتوسل إلى كرمك وعطفك، أن تمنحني جواز السفر.

– ألا يكفيك ما قلته وأكرره، وهو أنك ستصبحين حرة طليقة، ولك أن تتصرفي في نفسك كيفما تحبين.

أنتفضت أولجا واقفة، تحركت قليلًا، ثم اضطجعت على مقعد آخر، وأخذت ترقب ما يطرأ على وجه نيكولاي من تغييرات. إنها ستريد أن تقف على حقيقة الأمر. هل هو جاد فيما يقول؟

أم أنه يسخر ويتهكم؟ لقد اعتادت ألا تصدق إنسانًا مهما يكن نقاؤه، وصدق نواياه!

وحينما سددت نظراتها نحوه، خيل إليه كأن شعاعًا أخضر، يومض في عينيها، فبدتا كعيني قطة.

سألته في رقة:

– متي تمنحني جواز السفر؟

– واعترته نوبة من الغضب فقال:

– لن تحصلي عليه.

لكنه سرعان ما استدرك هادئًا:

– متى تريدين؟

– سأقضي شهرًا واحدًا.

– ستذهبين إلى متشل، وسوف أطلقك، لأمنحك فرصة الزواج منه..

أجباته أولجا:

– لكني لاأريد الطلاق، كل ما أريده هو جواز السفر.

– سألها نيكولاي:

– ولماذا ترفضين الطلاق؟

– أجابت وهي تبتعد عنه:

– لقد فهمتك، إنك سئمت حياتي، وتريد أن تتخلص مني.

أشكرك، ولكني لست من البلاهة، بحيث لا أفطن إلى "لعبتك" لن أقبل الطلاق، ولن أتركك. تريدني أن أفقد مكانتي في المجتمع؟

ثم، ألا تعرف أنني في السابعة والعشرين، بينما متشل في الثالثة والعشرين؟ ولابد أنه سيضيق بي بعد فترة، حين ينمو شبابه، بينما يكون شبابي آخذًا في الانطفاء، وبعدها لا يضيره أن يتخلص مني. إنني أدرك تمامًا، أن عاطفتي المشبوبة نحوه، لن تدوم أكثر من عام! أفهمت؟ ماذا تريد أن تعرف أكثر من هذا؟ وعليه.. لن أتركك.. لن أتركك مهما حاولت.

– عندئذ صرخ نيكولاي في عصبية:

– لابد أن أخرجك من حياتي بأيه وسيلة سأطردك.. نعم، سأطردك.

– أجابت:

– سنرى.

– وتركته وانصرفت..

جاء الصباح..

الدكتور جالس إلي مكتبه، يحط على ورقة أمامه بحركة لا شعورية "سيدي الفاضل.. القدم الصغيرة"، ثم يغادر الغرفة إلى غرفة

الاستقبال من وقت لآخر، حيث يقف متأملًا صورة كبيرة معلقة على الحائط.. الصورة التقطت منذ سبع سنوات له ولزجته أولجا ديمتريفنا، ولأبويها، حين كانت في العشرين، وهو في عنفوان شبابه، كان أبوها رجلًا، وسيم الطلعة، أنيق المظهر، وأمها كانت مفرطة في السمنة، وذات نظرات صارمة، أما أولجا، فكانت نظراتها أحد من السيف، وفي عينيها لؤم، ودهاء، كأمها، بل أشد! وهو.. كان يبدو فتى، ساذجًا، ذا قلب طيب. لقد اعتقد أنه عثر على نصفه المنشود. إنه يذكر جيدًا تلك الأغنية العذبة التي كان يرددها، حين كان طالبًا:

"إن حرارة الشباب تذوب..

والحياة تصبح باهتة..

حين يفقد القلب إيمانه بالحب".

وألقي على نفسه سؤالًا، حاز في الإجابة عليه:

– كيف، وهو ابن قسيس الذي تربى تربية دينية بحتة، يضع نفسه رهن نزوات هذه المرأة المستهترة؟!

وحان موعد ذهابه إلى المستشفى الذي يعمل به، فارتدى معطفه، وتهيأ للخروج، حين دخل الخادم عليه غرفة مكتبه.. فساله:

– ماذا تريد؟

– أجاب الخادم:

– لقد استيقظت سيدتي، وهي تذكرك بالخمس وعشرين روبية التي وعدتها بها أمس!!

صدر للمترجم

١- رغم كل شيء. "قصص قصيرة". الكتاب الماسي .الدار القومية للطباعه والنشر. القاهرة: ١٩٦٣

٢- أحلام الزروق الغريق. "ديوان شعر". الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة: ١٩٦٧

٣- من أجل الشعب. "مسرحية رومانية" مترجمة عن الإنجليزية سلسلة "مسرحيات عالمية". الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة: ١٩٧٠

٤- ليال مسرحية. "نقد لعروض مسرح الستينات". كتاب الإذاعة والتليفزيون. القاهرة: ١٩٧٣

٥- القناع والوجه القديم. "ديوان شعر". منشورات المكتبة العصرية. بيروت: ١٩٨٠

٦- ذكريات على الشاطئ.. في الأدب والفن.

الكتاب الذهبي. مؤسسة روز اليوسف. القاهرة: ١٩٨٩

٧- نجوم وحكايات. كتاب التعاون. منشورات دار التعاون.القاهرة : ١٩٩٢

٨- ليالي الغضب. "ديوان شعر". الهيئة المصرية للكتاب. القاهرة: ١٩٩٣

٩- أوراق بدون ترتيب. في الأدب والفن والحياة. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة: ١٩٩٩

١٠- من كلام العرب.. في هموم العصر. قراءات واختيارات من التراث "تحت الطبع".

الفهرس